ضريح بلا شيخ

ضَرِيحٌ بِلا شَيْخٍ
مجموعة قصصية
الكاتب: شاهندة الزيات
تصميم الغلاف: أحمد جمال عيد
تصحيح لغوي: عمرو سواح
إخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط رسوم الداخلية: إسلام إبراهيم
رقم الإيداع: 25352 / 2017
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 006 - 5

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

ضريح بلا شيخ

مجموعة قصصية

شاهندة الزيات

مُقَدِّمَة

واتَّخذوني صديقًا، واتَّخذوني صاحبًا، وأنا عدوهم اللدود، لا أزعم أني متحكمٌ فيهم، كلُّ ما لدي أفكارهم أتلاعب بها وقتما أريد وكيفما أشاء، هو أمرني وأنا أطيع، تحدَّاني وقبلت التحدي.

أنا هالكٌ لا محالة، ولا بكاء عليّ، ابْكُوا أنتم على أرواحكم الكذوبة التي خلقت لكم وما اسْتَحْقَقْتُمُوهَا.

لكم الجنة خالدين فيها، وليّ النار وبئس المصير.

سأصطحبكم في رحلتي والصراخ الأبدي يمحق عظامكم ويفنيها.

في قاعٍ أسودٍ يسمى الجحيم سنتقابل.

ظهرت لتتلاشوا، خُلقت لتُعدموا، تسابقت بالشر لأمنعكم عن الخيرات، وها قد فعلت وقد تَوَّجتموني عليكم، فسحقًا لقومٍ ظالمين.

* * *

إهداء إلى روح أبي.

المقاتل/ محمود موسى الزيات

صرير الافاعي

كُلُّ شيءٍ بدأ يدور حولها عكس الاتجاه، وكأنَّ كلَّ الكون قرر فجأةً أن يحكم عليها بالحريق حيّة، حين نشبت النار في منزلها الذي لم يكن متواضعًا، وكأنَّ كلَّ قطعةِ أثاثٍ به تتفق مع الأخرى لتشتعل حولها وتشكل حاجزًا منصهرًا يمنعها من المرور.

رقدت وسط صراخها ولكن ليس بسلام.

الأم التي أنجبت فتاتين، كلُّ فتاةٍ من رجلٍ، وكلُّ رجلٍ ما هو إلا بنك متحرك نحو الرذيلة والشروع بخطواتٍ ثابتة نحو السوء والقاع.

ليس كلُّ زوجٍ برجل، وكل مَن ليس بزوج هو مزيج من عذاب وحرب داخلية تدور داخلها.

هل ينادي لها القاع بالفعل أم هي أصبحت جزءً منه فما عاد يكثرت لها.

تذكرت كلَّ هذا والنار تأكلها و تأكل ذنوبها معها.

بجوارها عشيقها محترقًا بشهواته، هتكت سراديب روحها فوق فجوة المتطلبات، نست معنى الأخلاق وراحت في طريق إشباع الرغبات دون رجوع، فذلك طريقُ ذهابٍ بلا عودة إذا قررت وَأْدَ نفسِك اللوامة على بابه؛ فأنت هالك لا محالة.

مع كل قطعة من الماس كانت تترنح، مع كل رزمة مال كانت تُطَأْطِئ رأسها، مع كل صفعة من رجل كانت تتدنى أكثر للأسفل، ما اكترثت بتربية البنات، فقدت معنى تلك الحروف منذ أمدٍ بعيد.

ما عادت تتذكر كم من السنين مرَّت، هي تحسبهم بحساب عمر الابنتين، عشرون عامٍ في الرذيلة وممارسة تقطيع الروح على مسرح الأماكن القذرة.

ألمْ تدركْ بعد عنوانًا للتوبة.

الأم كانت تتنقل من مكانٍ لآخر حتى لا يدرك طرف ثوبها قذارتها، ولا يعرف الجيران وسكان المنطقة الراقية أفعالها، فكانت لا تمكث في عقارٍ أكثر من عامين.

هذه خطة قد وضعتها لتهرب من ألسنة الناس وعيونهم التي ترمقها بتلك النظرات الخارقة لملمس جسدها.

ولأجل ثرائها فهي قد تمكنت من المحافظة على ذلك الجسد الممشوق المرسوم بمعايير محددة، والصدر المرتفع المستعد لأية مواجهة في كل لحظة، والرقبة التي نبذت منها تلك الترقوة التي تصيب الأعين بالانبهار، والشعر المنسدل حتى تخطّى حدود خصرها.

اندهشت الأم حينما أتى شابٌ ثري من الحي الذي تقطنه جديدًا لخطبة ابنتها الكبرى.

استغربت لأنها كانت تلاحظ اهتمامه بالابنة الصغرى، ولأن البنات لا يعرفن أنهما أختان غير أشقاء، ولأن الأسرار التي تحملها تلك الأم كثيرة تتعارك داخلها حد الموت؛ قررت أن تقبل به زوجًا للابنة الكبرى وتناست أنه كان معجبًا بالصغرى.

فكيف تحاول أن توقظ فيها الضمير وهي قد تعودت موته منذ زمن بعيد.

بعض الأشياء لا تشترى ولا يجدي معها مال ولا نفوذ مثل التربية والأخلاق والكرامة.

فكان هذا الزوج مزيج من البين بين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

تعجبه تربية الكبرى وظهورها بمظهر المحترمة.

هى كانت غيرهما، ربما حاولت أن تبتعد عنهما ولا تضع نفسها في مرمى أمِّها وأختها الصغرى.

ومع ميوعة الأخت الثانية وقتل براءتها وامتزاجها بأخلاق أمّها فقد كانت الطامة الكبرى حيث قرر في داخله أن يحظى بالاثنتين.

لمَّحت له الأم معرفتها بالأمر، وتجاهل الاثنان أي دينٍ وأي أخلاقٍ وأي تربيةٍ، مساومةً إياه بالإشارات أن يتركها تفعل ما يحلو لها ولا يراقبها ولا يعتب عليها أفعالها، فهي كانت وستظل بتلك الأفكار لمزيدٍ من الأموال بدون أي مشقة أو تعب.

تسهر ليلة أو ليلتين تطرق أبواب أجساد الرجال وتحتلهم، آمنة بوجود المال في حياتها، لم تتعلم تذوق الاحترام للغير أو حتى لنفسها، تفضّل الأمان في مذلة الزنا عن السلام النفسي والإلهي في وأد الفقر.

الابنة الصغرى المدللة التي راحت تتدلل لزوج أختها كلما سنحت لها الفرصة واختلا ببعضهما.

ولِمَ لا؟!

هذا ما رأته طيلة ال ١٨ عامًا.

وعند وجود الأخت الكبرى يلتزم كلٌّ منهم مقعد الأمان، وادِّو عاء الأخلاق، وكأن تلك الأم والابنة والزوج تعاقدوا مع الشيطان.

هي ليست الأم المنشودة، وهو ليس الزوج الطيب الودود، والصغيرة ليست الأخت المرجوة من العالم، وكأن الحياة تعاقب الكبرى على

صلابة أخلاقها، وجديتها مع من حولها، وتكافيء الخونة، هذا ظاهر الأمر.

ولكن أحدثكم عن باطن الأمر الذي هو سهر ومشقة وعبء طوال الليل وتلك النظرة منهم إلى السماء وكأنهم منتظرين أن تقع عليهم من جراء ما يفعلون.

يأتي أحدٌ من الجامعة زميل الصغرى لخطبتها؛ فتوافق الأم على مضدد فهو ليس ذا مال عظيم مثل زوج الأولى، وعلى قدرٍ من الخلق والقرب من الله يمكنه من محاسبة نفسه، هذه النعمة التي فقدوها مع عذريتهم وبكارتهم.

قررت الأم أن توافق عليه، وظلت الصغيرة حتى بعد الخطوبة في علاقة ممتدة مع زوج الأخت الكبرى.

صارحتها أمّها في ليلة شديدة الضباب أنها سوف تجري لها عملية لإعادة هذا اللعين الذي يجعلها بكر المشاعر، عذراء الجسد، بتول الأحاسيس.

فرحت البنت وتطمأنت من وعد أمها.

يحسبون أنهم أذكية طوال الوقت ونسوا أنَّ الإله اسمه الحق والعدل، والرحيم والشديد العقاب في نفس اللحظة.

سمعت الأخت الكبرى الحديث متعجبةً كيف لأمها أن تفعل هذا وهل تلك تؤتمن على أن تكون أمًا.

ناهيك عن أفعالها فهي أم كيف لا تحافظ على أختي؟!

وكيف أختي تستهين بتربيتها إلى ذلك الحد؟!

وفي يوم من الأيام ذهبت صباحًا إلى أختها بمنزلهما حيث كانت الأم تستقبل أحدَهم في غرفتها والشقة في غاية الهدوء، وكلّ منهما تجلس بغرفتها ما لها شأن بالأخرى.

فتحت باب المنزل بدون أي صوت، عامدة أن تدخل متلصصة على الأخت الصغرى، وكانت تستلقي بجسدها فوق سريرها مغطاة بمُلاَءَةٍ بيضاء اللون عكس روحها وعكس ما تفعل.

هي تحادثه في الهاتف، لاترى أختها ولا تنتبه إليها، هي تسرح مع الآخر على الهاتف تعيش معه حالة حب وحالة خيانة وحالة ذهاب العقل وتتحسس جسدها وتمشي بأطراف أصابعها عليه.

فسمعت الأخت همساتها وآهاتها وتوجعها من تلك النشوة داخلها، وتململها وهي بين يديه بدون أية إرادة.

وأية إرادة أمام شهوة امرأة قد حضرت لتفترسها حية وتأكل كل قطعة في جسدها.

سمعت اسمه،فكانت الصاعقة، هو زوجها الذي كانت تراه دائمًا يتابع أختها الصغرى وتكذّب إحساسها متهمة نفسها بسوء الظن.

لم تتخيل أنَّ ظنها كان بمحله وأنها هي من صمتت لوصول الأمر إلى ما هو عليه الآن.

كان دائمًا ما يحضر أثناء غيابها عن المنزل، الآن هو مع أختها يتهم زوجته بالبرود الجنسي ليبرر أفعاله الساقطة.

فترد أختها الصغرى عليه كنت أظن أنها تبللك بالعشق، وتسحقك فوق فراشها لذة.

سقطت مغشيةً عليها هذه الروح النظيفة التي لمْ تتعود على كلّ تلك القذارة والقسوة من الدنيا، فكم أحبتهم وكم تفانت لإسعادهم وكم كانت تتمنى أن تنجح لتكن متفوقة ولكنها وافقت على الزواج من أجل مال زوجها لتسعد أمها وأختها ويعيشانِ حياةً كريمة.

أختها تتنهد مع زوجها وتصيبه وتفر به وبجسده إلى عالم الألعاب المجنونة، نعم مجنونة، فأي عاقلٍ يفعل هذا.

كل تلك الأحداث تحدث والأخت الصغرى مغطاة بمُلاَءَتها، لا تدري بأي شيء ولا تسمع أي صوت.

هي تنام بين يديه، مجهدة الروح حد الموت، فانية كالتراب، مترامية همتها حد الإفلاس.

تفيق الكبرى بعد بضع ساعات وما زال كلٌ على حاله، الأخت نائمة، والأم بغرفتها في عالمها الآخر مع عشيقٍ جديدٍ من النوع الفاخر، وكأنه زوج من الأحذية وحانت الليلة موعد ارتدائه.

عليها أن تفعل شيئًا، هي تنهار، هي جُنَّت.

فرطٌ من الجنون واللا عقل قد سكنها وكأنَّ شيطانًا مد يديه وانتزع منها عقلها وقلبها.

هي جاءت لشيءٍ تفعله.

هي جاءت لتنتقم لكل تلك الدقائق لأمها في أحضان الرجال، جاءت لكل تلك التأوهات في عيون الآخرين، جاءت لأمها وأختها، لكل ذنبٍ فعلاه غير مكترثتين لإلهٍ ولا لدينٍ ولا لخلقٍ ولا لأيّ مُثُل عليا، ولا آسفين يومًا على فعلتهما.

هي قد بعثها القدر للانتقام.

دخلت مسرعةً وفي نفس الوقت متمهلة تحضر البنزين الحي الاشتعال الذي تستعمله الأم في تلميع الجواكت الجلد لرجالها ولملابسها يسمى بنزين للطيران.

عقلها يخبرها أنه أقوى أنواع الزيوت البترولية حرقًا وأسرعهم اشتعالًا.

على الفور رجعت لغرفة أختها تحمل إياه وهي محدقة بعينيها اللتين قد اتسعتا وكأنهما قرصًا من البلوور، لا ترى بهما إلا لمعان النار وقوة الموت، علَّ الموت منجيهم.

فنثرت منه كثيرًا حول سرير أختها وهي تهمس "سأزفك له، سأعقد عليكما الليلة، لا ليست الليلة وإنما في التو واللحظة"

ثم خرجت خارج الغرفة وهي تنثر البنزين وتعود للخلف تاركةً الغرفة.

تضع أذنها على غرفة أمها فتسمع شهيقًا وزفيرًا وقد علا صوت نومهما.

ولِمَ لا يعلو وهم في الغرفة منذ عدة ساعات وقد أُنهك جسدهم وكأنهما كانا يخوضانِ حرب طروادة العظيمة.

مدت يدها لتسحب مقبض الغرفة ففتحت الغرفة التي لم تعتاد الأم يومًا إغلاقها تاركة إياها مفتوحة مثل تلك الحيز فيها، وتلك الحياة المسلوبة الإرادة التي تعيشها.

دخلت الابنة تتحدث في سرّها، تهمهم بكلماتٍ، سأطوف بروحكما، سأغسلكما يا أمي، سأناشده يسامحكما، سأبتهل لكن بعدما أن تأكلكما النار أحياءً، أنا أزفكما للخلود.

تخرج من الغرفة تاركة وراءها آثار البنزين مغدقة جميع ما تبقى حول أمها والرجل.

تركت أثر البنزين حتى آخر خطوة خطتها، ثم قررت أن تضرم النار بالبيت.

وبتلك الولاعة الذهب التى أهداها إليها زوجها الثري أشعلت أول شرارة، وبدأ أول خط من النار يجري وينقسم في اتجاهيين مختلفيين، هو ينسحب كشريط حياتها تمامًا ليصل لغرفتين شهدتا على جرائمٍ عدةٍ لقتل الجسد والروح.

تهذي بينما تتصل بالشرطة أنا أضرمت النار فيهما، قد استحقاها، لا أتخيل أن أخسر وحدي، كُلنا في هذه اللعبة قَذِرون.

لا نأبه بالأدلة التي تديننا، فنبات نتكبد عناء الخسارة وكأن التدني ملاذنا الأوحد للتلاقي.

أنا أقطن في هذا العنوان عند أول (صرير للأفاعي) ستجدونا هالِكين في بحر الملذات، مضطرين لقتل أنفسنا وأجسادنا، تاركين أرواحنا تذهب لملاذ البعث من جديد، هو وعدنا ووفى، ونحن تحدينا وخسرنا!.

يخنقها الدخان فيغمى عليها ولا تدرك إنقاذ نفسها.

فبعض أفعال غيرنا تؤذينا ونتضرر بها حتى ونحن لم نشارك بها.

الذنب يطول الجميع، النار قد أكلت جميع الشقة بمحتوياتها ولم تصرخ أية واحدة منهما أية صرخة، حتى الهاتف لم تظهر له أي ملامح.

نزلتْ من عنده تنظر يمينًا ويسارًا، هل يراها أحد؟، هل يشعر بها أحد؟

اعتادت أنْ تأتي له كل أسبوع مرتين، في كل مرة ثلاث ساعات، وهل يكفي هذا الوقت أنْ تقول كلَّ ما عندها؟.

وهل يكفي أنْ تسرد عليه كل ما تعانيه مع ذلك الرجل الذي نُزع منه الشعور نزعًا، ورغمًا عنها يقودها بعلاقاته إلى حافة الجنون.

تحدق في أركان الغرفة، وتسرد لحنًا موجع النغمات لحبٍ دُفن بدون أن يعرف بولادته أحد.

تدافع عن حقِّها كإنسانةٍ سُلب منها كل مشاعرها في زنزانة قسوته، تريد أن تتعافى من عشق مسامته، من بروده، من جبروته، من كل لحظة بدء انتشوا فيها معًا

تأتي هنا لتقابل هذا الشخص، الذي تستكين وتهدأ روحُها عندما تراه، مَن غيره سيعلم ما تمر به، مَن سيصدق ما تحكي عنه، مَن الذي سيخبرها بأنها امرأة عندها من الإرادة ما يؤهلها لتجتاز به كلَّ هذه المحن التي تسحق روحها سحقًا.

قال لها ذات يوم: "أنتِ امرأة غير مسبوقة، كوني كما تريدين أن تكوني ولا تكوني كما يريدون هم أن تكوني".

هو يصدق كلَّ ما يجول في عقلها، الذي يخبرها عمدًا ومع سبق الإصرار بكل ما يحدث حولها.

هي لا تؤمن بعالم الجِنّ، ولكنها تؤمن بما وراء الطبيعة، وأنَّ هناك قُوىً خفيةً تحركنا عن بعد، تلعب بنا أحيانًا وتصادقنا أحيانًا، وتهذي بنا أحيانًا، وتنتهكنا أحيانًا أخرى.

هي لا تعرف هل هذا قرينها؟!

أم ما هذا الشيء الذي يجعلها ترى كلَّ الأحداث عن بعد وقتما تحدث، وأحيانًا قبلها؟

يسرد لها في نفس الوقت الذي يكشف فيه صورة المكان الآخر الذي يبعد عنها عشرات الكيلو مترات.

بينما تقوم بهدهدة صغيرها ووضعه في سريره لانتظار الزوج، تسمع الآن حوارًا دار بين زوجها وامرأةٍ أخرى.

هو يراودها عن نفسها ولكنها لا تستعصم.

هي تراه الآن يقوم بلمس شفايفها في سيارته أثناء رجوعه من العمل.

يذهب بمنتهى الخيانة لاصطياد إحداهن، ويفتح لها باب السيارة، فتجلس بمنتهى الحرفية والمتعة.

وما المتعة في ذلك الشيء الحرام، الذي استباحه الزوج.

تلتهب المرأة المحرَّمة من تحسس يد الرجل عليها، تكشف له بكلِّ الميوعة عن جسدها، فهم في مكان شبه خالٍ من البشر، وما آن لهم أن يكتشفوا أنَّ هناك ربًا هو ناظرٌ لهم.

الزوجة ترى المشهد وتقنع نفسها أن هذه ليست نهاية العالم، هناك مَن تعرّض للأسوأ، أنتِ أقوى من كلِّ الظروف.

فنحن أصبحنا في زمنٍ لا يُؤتمن على طهارتنا، فالسلام على تلك الأرواح التي تلتحف في براءتها وتراعي الله في الخلوة.

وكيف تعاتب من هانت عليه في بُعدِها، وهي لا تمنع نفسها عنه يومًا، بل تتدلل له كلّ ليلةٍ وكأنّها البكر في ليلة زفافها.

هي لا تدري أهذا ما يسمَّى بالقرين، أم أنَّه شيطانٌ يخيل إليها الأشياء ليَحدث مشكلة مع زوجها، كيف ستتأكد.

رجع زوجها إلى البيت متأخرًا مثلما اعتاد، توجه إلى النوم مباشرة، له كل الحق فهو قد نال وترًا من الدنيا في الخارج فلم ينظر إليها.

تقرر أنْ تبحثَ بين أوراقه، علَّها ترى شيئًا يصل بها إلى أي معلومة عنه، فتقرّر أن تفتح محفظته، تخرج في منتهى الهدوء قابضةً على تلك المحفظة.

أتريدون أن تعرفوا أمرًا، هي لا تدري لماذا أمسكت المحفظة، شيءٌ حدَّثها أيضًا أن تفعل.

هي أصبحت لا تسير إلا بتوجيهاتهم.

مَن هم؟

لا تعرف.

هي لا تريد أن تعرف؟!

هي أرواحٌ تساعدها.

أو ربما جُنَّت.

فكثيرٌ من الأشخاص يذهبون بك إلى سرداب الجنون ليضعوك فيه إلى الأبد ثم يقولون لماذا قد جُنَّ؟!

تحدِّثها نفسها مرارًا وتكرارًا أنَّ الخيانة بالخيانة والوجيعة بالوجيعة والباديء أظلم، ولكنها لا تصنت إليها أبدًا.

تحدِّثها وتحدِّثها وهي مازلت قابضة على جمر الأمانة، حتى لو ماتت في اليوم ألف مرة.

تفحص بعينها كلَّ الأوراقِ في محفظته، تفتش بين الكروت الشخصية لأصدقائه.

وفي لحظة خاطفة وقعت بطاقة في يدها، فيأتي هاتفٌ في آذانها يأمرها أن أقلبي البطاقة، شاهدي ما وراءها.

تقلِّب البطاقة لكنها لا ترى شيئًا، تتلمسه ولا يُلفت انتباهها أي شيء، تأتي بأمرٍ منه بالمصباح وتصوّبه نحو ظهر البطاقة، فتشاهد خيالًا لأرقام هاتف.

وضعتْ ورقة شفافة فوق البطاقة، وأحضرت قلمًا رصاصيّا وقامت بتحريك القلم يمينًا ويسارًا كالذي يصنع خلفية معتمة لصورة جرافيتية لتُظهر ما أسفل البطاقة.

إنها الأرقام تظهر!

تأتي بالرقم الذي ظهر واضحًا جليًا، ولكن الوقت بات متأخرًا جدًا فتقرر أنْ تذهب وتخلد للنوم.

وكيف ينام مَن به وجع بالروح، وتمزق بالثقة، وتهتك في المشاعر.

هي ستتظاهر بالنوم بينما هو يهذي بجوارها باسم امرأة "رباب".

تُجن ولكنها تتأنّى لتعرف المزيد.

مَن رباب؟!

يلتفت إليها وهو نائمٌ ويحتضنها دون أدنى وعي منه. قائلًا: "حبيبتي"، فقد استمسكت روحي بك كالعروة الوثقى لا انفصامَ مني.

وأنت بغاية الأنانية وثقت حروف اسم امرأة أخرى على جدار قلبك الهش.

وكم مِن ليلٍ يطول على ساهرينه، ينتظرون أنْ يحنَّ نجمُه عليهم بالنسيان، وأن يسقطَ ليحرق معذّبهم، أو يناشدونه لإخفاء حزنهم داخل سواده الحالك.

يأتي النَّهار ويذهب الزوج للعمل، وتهم هي على الهاتف الجوال مسرعةً، متصلةً بالرقم قائلةً: هل لي أن أخاطب رباب؟

فرد أحدهم على الهاتف، أنا ابن عمها، مَن أنتِ يا ذات الصوت العذب؟

تفاجأت بتلك المعاكسة السمجة، وتضايقت وضاقت بزوجها ذراعًا، فهو مَن أوقعها في ذلك الفخ، هو مَن أرغم صوت الغيرة أن يصم آذانها.

أغلقت الهاتف وعندما تأكدت بوجود شخصية تُدعى رباب؛ نست كيف عرفت الرقم وتوعدت لنفسها بالانتحار، ولكنه سيغضب اللهَ تعالى، ستموت كافرةً، ولِم؟!

مِن أجل مَن استهان بها وصوّب كلَّ رصاصاته وأسلحته صوب قلبها، أهو يستحق !.

لا وربي، هو لا يستحق.

مَن لا يقدّر قيمتك فلتضع روحه في أقرب سلة مهملات.

هكذا قررت، أن تعيش معه لأجل ابنها لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا.

بعد خمس سنوات، وفي يوم من أيام الشتاء القارص، رعدٌ وبرقٌ ومطرٌ، نزلت من الغرفة في الطابق الأخير.

رأتها أخت زوجها وهي في المنطقة المجاورة وأختها تنتظرها بالأسفل.

هي تتلفت يمينًا ويسارًا، تخاف أن يراها أحدُهم.

أختها تنتظرها وتنظر في ساعتها، ثم تقوم بالاتصال بها.

هيا انزلي قد تأخّرنا، وها هو المطر يهطل علينا، ماذا سنقول لزوجك؟

أنتِ تأخرتي كثيرًا هذه المرة.

قالت : كنت أحتاج إليه، قد شفاني مِن كلِّ وجعٍ ألمَّ بي، أحتاج لأن يهدأني، أنفعل معه كثيرًا، فيخبرني أنَّ هذا أقل ما أشعر به، وأني قوية إلى الحد الذي يجعلني مازلت أنام في أحضان هذا الرجل الذي يسمَّى زوجًا.

ترد الأخت قائلةً: "آخر مرة قُمتِ بالانتحار كدت أنْ تموتي، كفاكِ موتًا مِن أجل مَن لا يستحق.

محاولاتك ترعبنا.. قطعك لشراييننك أرهقنا في غرفة العمليات، ألم يقلْ لكِ حلًا يُرجعك عن تلك الأفكار، هو يعينك على الحياة.

تسمع أخت الزوج هذا الحوار وهي تتبعهم من الخلف، تكاد تتأكد من خيانة زوجة أخيها؛ فتجري كاشفةً لهما عن نفسها، ماذا تفعلن أيتها الوقحات؟ أتخونني أخي علنًا ولا تستحي ولا يهمك فعلك فتأتي بأختك لتواري فعلتك أيتها المجرمة؟

وتنهال بسيلٍ من الألفاظ والشتائم عليهما، والمارَّة يشاهدون المشهد ويمصمصون شفايفهم، ويشاورون على الزوجة، ولا يدركون شيئًا مما حدث، فقط تظهر علامات الشماتة على كلّ مَن يسمعها.

تنهار الزوجة وتُجن.

وتلتفت الأخت وتضرب أخت الزوج على وجهها، تصفعها بالقلم لتسقطها أرضًا قائلةً :

" اصمتي يا امرأة، أنتِ لا تعي ما تقولين".

بينما يستمر المطر بالهطول وكأنَّ السماءَ تبكي على تلك الروح التي طالما عذبها كل مَن عرفها، وكل مَن كان من المفترض أن تثق فيهم.

تنطق أختها أنه الطبيب " أحمد"، طبيبها النفسي ، هذا هو الذي في الطابق الأخير، هذا هو ما أوصلنا إليه أخوكِ، أختي تتعالج عن طبيب نفسي، واليوم كان موعد كشفها الأسبوعي.

في عز كل تلك الضوضاء لم يدروا أنَّ الزوجة الآن على الجهة الأخرى من الطريق، قابعةً تحت عجلات سيارة نقل.

هي قد "ماتت"

وقد سال دمها على قارعة الطريق متمنيةً أن يمحو أوزارهم، ويملأ فراغات قد حفرتها قساوتهم، لعله يرويها، فتطرح زهرًا يعطر أحزانها ويمجد ذكراها، ويصنع من موتها أسلحة تطلق عليهم وابلًا من الرصاص يمنحهم الراحة الأبدية حيث العذاب السرمدي،

استيقظتْ في ذلك اليوم الذي انتظرتْه منذ زمنٍ بعيدٍ لكي تعشق الحياة حتى بلغ عمرُها الآن ٣٩ عامًا من الوحدة والوجع واللا وجود أحيانًا.

ذلك كان شعورها وهي ترى أخواتها كلّ واحدة في منزلها، وأخوها قد بلغ عُمر ابنه عشرَةَ أعوام.

هم يريدون فعلًا أن يطمئنوا عليها ويفرحوا بها في بيت زوجها.

جاء هذا اليوم محمَّلًا بكل البهجة، كانت تطل من خلف الأبيض وكأنها الأميرة المفقودة (السندريلا).

نزلتْ صباحًا لتذهب مع صديقاتها في جوٍ من الحفاوةِ لمصفف الشعر (الكوافير).

أسرعت وأسرعت وهي تضحك وقلبها قد انفتح ليحضن الدُنيا، وهي ترى حبيبها الذي سيصبح زوجها الليلة على الجانب الآخر من الطريق.

وفجأة تجد رموزًا " أن عودي حيث جئتِ " ،همهمات تهمس في أذنها، وترى إشاراتٍ سرّيةٍ مخفيةٍ عن الأعين على الطريق الذي سيوصلها بخطيبها.

رفضتها ولم تصدّقها.

رفضت أن تطيع الإشارات والدلالات على الرجوع.

وأثناء سماع صديقاتها وهم يصرخون أَفَاقَت من غيبوبتها التي استمرت لثوانٍ معدودةٍ، تنظر حولها فتجد نفسها مغمضةَ العينين، خاشعةً على الأرض، ملطخةً بدمائها ودماء حبيبها.

فقد كانت هناك سيارة يقودها شخصٌ فاقد الوعي، لا يدرك أنَّ بإهماله قد تموت أحلامٌ قد بدأت للتو، يترك السيارة تترنح مسرعةً بكل قسوة، محطمةً كلَّ ما يقابلها.

تقابلا في نفس اللحظة التي مرّت فيها تلك السيارة لتذهب بروحهما في ليلةٍ كان من المفترض أن تكون ليلة حياتهما.

هي أصبحت ليلة الموت، وربما لم يكن موتًا بل كان فراقًا لدفء التلاقي.

فوجدته ينظر إليها في أبهى شكلٍ قد رأته به يومًا، وقد أخذ بيديها ومسح الدم عن جبينها ووجنته وقال لها:

"فلتكن حياة أبدية... تلك التي نستحقها... نُدفن معًا لنحيا معًا".

وضوء صلبية

صعدتْ إلى ذلك الطبيب وهي تتنهد الصعداء، ضعفت قواها، ربما مرتبكة مما قد أصابها، ولكنها ما زالت قوية بحبيبها وبأحلامها وبحب أصدقائها لها.

ولكنها خائفة أن تقف الحياة بها عند تلك الحافة وتجرفها لتسقطها داخل فجوة النسيان حيث لا وجود ولا حلم ولا حب ولا عودة مرة أخرى لتشارك الحياة فرحتها بهذه الحياة.

عيناها ترتجف، جفنها لا ينفك عن التحرك برعشةٍ غريبة، وكأن الأعصاب كلها تجمعت عند خدها الأيسر تتعارك.

هل ستصاب بجلطة أم سيخبرها الطبيب أنَّ بها إلتهابًا بالعصب السابع وأنَّها ستمكث على سريرٍ ما في مستشفى فاخرة.

هل ستنتهي أحلامها عند تلك المشكلة الغابرة أم ستمر عليها مرور الكرام كما اعتادت أن تقف صلبةً أمام كل الصعاب... خيانة زوجها، وجحود أبناءها، واستخفاف أهلها بها، أو سينهال عالم أحلامها فوق رأسها.

أم كأنها النخلة في علياءها غير مبالية بالأجواء من حولها ولا العواصف ولا الرعد ولا ذلك البرق الذي اعتاد البشر الهروب منه ركضًا وربما هرولةً ومازلت تعطينا أطيب الثمر.

هل سيهتز داخلها، أم ستكون كالقمر يضيء نصف الكرة الأرضية بينما يشع الظلام من حوله.

هي تدخر صلابتها لهذه اللحظة، لحظة ما يتمنى أحدهم أن تقع، لتتأكد أنها ستمارس حياتها دون التفات لما أصابها، دون الركود في العدم.

وحتى مع ألمها ومرضها ستظل تعمل بكل اجتهادٍ لآخر لحظات العمر.

صعدت لتجد الطبيب.

(ترتجف عيناه اليسرى، مضطربًا، وكأنه قد أصابه زلزالٌ عنيفٌ سحق وجهه)

أمطار ديسمبر

دخلت ذلك المكان الهاديء، وهي ترتدي أفخم ما اقتنت من محلات Zara العالمية - طالما كانت تشاهد هذا المكان من بعيد، تراه من الخارج ويحدث داخلها حالة انبهارٍ بأضواءه الخارجية، بعدما أتيحت لها الفرصة أخيرًا وأصبحت تعد من المليونيرات، ويغدق عليها المال من كل اتجاه.

كان مَن تزوجها رجلٌ عتيق العُمر، كبير السن، اقتناها كما يقتني قطع الألماس التي تثير انتباهه، وإنَّما هي زادت عن الحجارة الغالية بأنَّها حركت عنده ما مات منذ أمدٍ بعيد.

رضيت باللعبة وفرحت بها، قائلةً لصديقتها التي نصحتها أن تبتعد عن هذه الزيجة : "لو كنتِ مكاني هل كنتِ ستبتعدين؟".

فصمتت الصديقة، التي تَمنَّت بداخلها أن تكون مكانها.

فأكملت قائلة: "بضع سنين لن يضروني في شيء، هو لن يعيش أكثر من عشرة أعوام، وبعدها سأصير حرة طليقة".

هي لم تكن تعلم أنها ستموت معه في الليلة بضع سنين.

هي لم تدرك كم ستكون المعاناة حين ترى صديقاتها وأزواجهم بكامل طاقتهم وصحوة شبابهم تزدهر في أعينهم.

هي لم تكن تعلم كم ستكون مطمعًا لكلِّ عينٍ سوف ترى أنوثتها بجوار هذا الكهل الذي أراد من الدنيا كل شيء.

تُقتل كل ليلة ألف ليلة وليلة ولكن بدون شهريار وبدون سيّاف وبدون قطرةِ دمٍ واحدةٍ تسيل من جسدها، ولا تلك التي تمنّت أن تراها.

انتظرت بدل العام أعوامًا.

أتقنت اللعبة وصارت لا تعد السنين.

صارت تعيش للتنفس فقط لا غير.

تعلمتْ تَصَنُّعَ الفرحة أمام الجميع، وفي الأماكن العامة يَسمع صدى ضحكاتها كلُّ الحاضرين.

يقشعر جسدها حين ترى كلَّ زوجٍ مع زوجته، وعند مشاهدة الأفلام الرومانسية تقنع نفسها بأنها البطلة.

هي فتاة ذكية صامدة، لن تقترب ولو مرة من حافة الخيانة.

عرفت كيف تعطي لهذا الزوج كل الاحترام، والهيبة، والمكانة التي يستحقها أمام كلّ الناس، وأمام أولاده الذين كانوا يكبرونها بأعوام.

لم تنظر إلى أيّ أحدٍ كان بهذا المطعم.

جاء إليها الجرسون يحمل " المنيو" فالتقطته منه وقالت:

"ضعه جانبًا، لن أطلب منه شيئًا، قل لي أنت ماذا عندكم الليلة من طعامٍ شهي".

فقال لها: اللحم البارد.

فَبَدَت عليها علامات الضيق وقالت له: "ابعد عن ما هو بارد وأحضر لي شيئًا به بعض السخونة ويا حبذا لو يكون حار الطعم".

ونظرت له نظرةً صائبةً في عينيه؛ فارتعشت يديه وهو منحني إليها يحدثها قلبه، شعر بشيءٍ على غير عادته.

قالت له: "إئتِ لي بشيءٍ به بعض من السخونة على طريقتك، سأرضى به".

تملّكه القلق للحظاتٍ ثم قال في رجفةٍ: أمرك يا فندم.

أدار لها ظهره فنادته باسمه (نبيل) فتوقف مستغربًا والتفت إليها:

- نعم سيدتي.

= عرفت اسمك من تلك الشارة التي تعلّقها على صدرك.

فأشار لها بضحكة مصطنعة أن لا عليك.

= أشعر أني أثقلت عليك بعض الشيء ولكنني أريد أن أرقص، بلّغ الفرقة على المسرح ، بلغ الفرقة أن يشغلوا لي الموسيقى التركي، ولتكن تركي علني أنسى نفسي لبعضٍ من الوقت وأفنى داخل إيقاعها المختلف.

فابتسم وهو في ريبةٍ من أمره قائلًا :

- تمام يا فندم، هل تريدين شيئًا آخر.

= لا، هذا كل ما أتمناه وأفكر فيه حاليًا، ولكن بعد الرقصة لا أعرف ماذا سوف يستهويني... دعني للحظات أفعل ما لم أفعله يومًا ولا خطر لي ببال.

ذهب الجرسون إلى الفرقة وقام بإبلاغهم بطلبها، وبالفعل قاموا بتشغيل الموسيقى التركي.

نهضت من مكانها بمنتهى الهدوء والرونق الذي يظهر منه علامات الشموخ والعزة.

صعدت على المسرح، وهي لا ترى العازفين أو الحاضرين في المطعم.

هي ترى زوجها على فراش الموت، بعد عشرين عامٍ من الألم ومن الوحدة مات وتركها عذراءً في كامل جمالها الخلاب في عامها الأربعين، تحتفظ بكل براءة البنت البتول.

تترنح على المسرح كزهرةٍ تتمايل في موجة هواء شديدة عاصفة.

ينظر لها الجرسون ويشعر أنها هنا لأجل شيءٍ ما، ربما رسالة من القدر محملة إليه، يراها تلف حول نفسها في كامل الهدوء تارة، وفي شدة التوتر تارة أخرى.

تجذب انتباهه وكأنها فراشة في مهب النار، مثل لحظات الشروق عند ماء البحر.

خطفت كل أنظار الحضور والجالسين في المطعم.

والجرسون يهذي قائلًا: أتمنى أن تمرَّ هذه الليلة سريعًا.

ترك كل فرد ما كان بيده، وانتبهوا إليها، حتى النساء فعلن ذلك.

شفافيةُ روحِها خطفت كلَّ الناسِ وكأنَّ روح صوفية قد تلبستها وتملكت هذا الجسد الممشوق الجمال ذو القوام الصارخ الرشيق.

عمرها الآن أربعون عاما.. ولكنها مازالت في أوجه نضارتها.

تهبط وترتفع وكأنَّ الدنيا قد خلقت لها للحظات غابت عن الوعي.

قررت أن تنسى أحداث العشرين سَنَة المنصرمة وكأنها كانت تعويذة تُلقى على كل الحاضرين، ترميها على أعين البشر عليهم يحملون منها بعضًا من أعبائها.

أخذت تشيح عليهم كساحرة ولكنها ليست بشريرة.

ولكن الدنيا قد خانتها وفعلت بها ما لم تكن تتوقعه، ربما لو تفرق على أعداد يذهب ثقله عنها، وتستطيع بعد تلك الليلة أن تمضي قدما في طريق حياتها من جديد.

انتهت الرقصة، وما كادت أن تنتهي إلا وحزن كل الحضور، تمنوا أن ترقص يومًا بأكمله.

كل ذلك الوقت الجرسون ينظر إليها بشغفٍ وانبهارٍ.

قامت النساء من أماكنهن ليسلمنَّ عليها.

وصفق الرجال تصفيقًا حارًا، ويلقون إليها بنظراتٍ عابرة.

قالت بصوتٍ منخفضٍ لم يسمعه إلا الجرسون المراقب لها : "هل سينتهي موسم الألم لأَحْيَا، أم أنني مُت سابقًا وها أنا أحيا.

تقدم إليها "نبيل" وهو يلتفت حوله، وكان قد انتهى من نوبة العمل الخاصة به، وكان الوقت قد تسارع كَسِنِين عمرها الجارية، وقرب ضوء النهار على السطوع.

- تسمحين لي أنْ أصطحبك للمنزل، أو أن أكلمك للحظات خارج المطعم.

= فأومئت برأسها بعلامة تدل على أنها موافقة.

انتظرها في منتهى التواضع، وحب الاستطلاع والفضول يغشاه فوق عقله كالظلل.

خرجت من المكان متجهةً إلى سيارتها ال "جيب" الحمراء.

دعته للركوب فركب بجوارها.

- أتسمحين لي بالاعتراف بأمر.

= تفضل، اسأل ما تريد وسأجاوب.

- أنا أعمل هنا منذ ما يقارب الخمس أعوام ولأول مرة تخطفني امرأة وتثير فضولي، أشعر أنَّ لكِ قصة وقد وُجدت هنا الليلة لأعرفها، فهذا الوقت في العمل ليس لي ولكنه لصديقي وقد غاب عن الحضور اليوم لتعبٍ أَلَمَّ به، ولم أدرك إلى هذه اللحظة لِمَ أنا هنا قد تواجدت، أنتِ لم تخطفيني بمفردي، أتحداكِ يا سيدتي أنَّ كلَّ الحاضرين اليوم ستظل صورتك بأذهانهم طيلة العمر، لسْتِ ممن يُتناسون بسرعة.

فشعرت باستغرابٍ وقالت:

= كيف لامرأةٍ بالأربعين من عمرها تُحدِث كلَّ تلك المشاعر التي تحكي عنها، أنت تجاملني حتى بدون أن تعرف اسمي، أنت تزعم أنك وُجدت هنا لأجلي؟

فقال نعم.

قالت: لو كنت ظلمت أنثى فأنت هنا لأجلي.

- هذه الليلة ليست موعدي في العمل، أنا بالتناوب عن صديقي ولأول مرة أفعل، كنت أحتاج إلى بعض المال فلذلك قد وافقت.

فتبسمت ساخرةٍ وقالت :

= من أجل حفنة من المال نضحي بالوقت والعمر الطويل والنهاية... ماذا جنينا؟!

أنا أملك المال، ولكنه لم يعد يشعرني بالحياة، جئتُ اليوم لأفني وجعي

وأمزق سيمفونيته التي تعزف على كل أرجاء جسدي، أنا هنا كي أعلمك أن لا ترضى بما لا ترضى به بسبب المال، يروق لي أن تتوه معي ولا تتذكر شيئًا من معاناتك.

هل تريد أن تسألني لم أنتِ؟، أو كيف أنتِ؟، أو من أنتِ؟.

أنا تلك الدموع التي تختبيء منك طول العام لتذرفها مع أمطار ديسمبر.

أنا تلك الأوراق المتساقطة على أرصفة الطرق في فصل الشتاء ويخطو الجميع عليها ويحطمونها وهم ممسكون بأيدي الحبيبة.

فجأة...

نزل نبيل من السيارة يجري مسرعًا ومهرولًا إلى منزله، ولأول مرة لا يشعر ببعد المنزل، ولا يغضب لأنه يسير والكل يركب السيارات الفارهة، ولا يشتكي قدمه التي وقفت طوال الليل تخدم الناس الأغنياء في المطعم.

ظل يهذي: أدركت الرسالة.. والله فهمتها، حتى وصل إلى منزلهم المتهالك فطرق الباب بشدة.

كاد يستيقظ من طرقه الباب سكان الحي الفقير.

ففتحت له أمُّه مندهشةً وهي تحضر الفطار لأخته ذات الثمانية عشر عامًا والتي تستعد لتذهب إلى ورشة عمل الملابس، هي تستعد مثلما فعلت منذ وفاة أبيها.

اقتحم غرفتها، وأمسكها بعنف وبشدة من كتفها قائلًا:

"لا يا صغيرتي لن أزوجك منه، سامحيني.

أردت لكِ حياةً سعيدةً.

أردت أن ترتاح أمك من الخدمة في البيوت.

أردت أن أتزوج أنا بمن أحبها.

أردت أن نحيا حياة كريمة ولكني نسيتك.

نسيت أنك من ستدفعين الثمن.

لم أتوقع أني أحفر قبرك بيدي.

ظننت أن المال حياة، وأنه سبيلنا إلى الفرح.

نسيت أن الحب يفعل.

نسيت أن الإرادة تفعل.

أنا كنت كَمَنْ يَئِدُكِ إلى الموت حيّة.

كنت أظن أنك بالزواج من ثري ستقطفي من الورود أحلاها، ومن الدنيا أغلى شيء فيها... وهو المال.

لم أدرك أن أغلى شيء فيها هو راحة البال ثم الحب.

فلسفة بلا منطق

رجعتْ من الجامعة مهزومةً، تترنح وكأنَّ سماءَها سقطت على أرضها.

لماذا يحدث ذلك معها؟!

هي ربَّته وادَّخرت عمرَها لأجله.

كلُّ ما أرادته أن يصبحَ فيلسوفًا مثل حبيبها السابق ولكنه بدلًا من ذلك راح يهذي ويسهر ويشرب الخمر، وتَلِفَتْ أخلاقه مع أصحاب السوء.

أصبح لا يأتي إلا وهي تستعد للذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضراتها.

رسب للعام الثاني على التوالي.

لم تدّخرْ مجهودًا ليصير مكتمل الأخلاق، ولا أهملت معه يومًا في تعليمه كيف تكون رجلا وليس ذكرًا .

صعدت إلى منزلها وهي تجري مسرعةً محطمةً بيديها الصغيرتين باب غرفته اللعينة تنهره بشدة:

"استيقظْ لترمي معي هذه الكتب من النافذة، ما أردتك إلا أن تكون مرفوعَ الرأسِ، كبيرَ القيمةِ في تلك البلدة، أنت خذلتني ليقول الناس أنَّ ابن الدكتورة فاشلٌ".

اذهبي أنتِ إلى الجحيم، ما تخيلت نفسي مرة فيلسوفًا ولا عالمًا، فكيف لكِ أن تتخيلي ذلك ؟، أنتِ نجحتِ مع كلِّ طلبة الجامعة ولكنك فشلتِ معي كَأُمّ.

هنا شعرت الأم بأن العالم يدور بها فتذكرت كلمة والده قبل طلاقهما

(لن يفلح ابنك لأنك ترغبين بما هو مثالي وتلك الحياة ليست مثالية)

قامت مسرعةً وهي تحمل كُتبَه بين يديها ترميهم من النافذة، وهي ترمي كتابًا تلو الآخر.

ألقت كتب العامين الأولين من الجامعة، فإذا بعامل القمامة يجمعهم وهو في غاية السعادة والنشوة وكأنَّ السماء قد وهبته نجمةً من نجومها لتنير حياته.

فاستوقفها المشهد وفرحته فنادته:

"يا أيها العامل، لِمَ كل هذه الفرحة في عينيك؟!

لِمَ جمعت تلك الكتب؟!

هل تدري بقيمتهم".

فقال: نعم سيدتي، وشكرًا لكِ علىتلك النعمة التي أهدتيني إياها، فأنا كما ترين عامل فقير، ولي ابن في السنة الأولى من الجامعة،

كلية آداب قسم فلسفة، ولا أملك المال الكافي لأشتري له تلك الكتب التي قرأتُ عناوينها في ورقته مرارًا وتكرارًا لأذكِّر نفسي بأنني أب فاشل، لا أمتلك ما يؤهل ابني لأن يكون فيلسوفًا عالمًا، ولكنك فعلتِ، فحمدًا لله على نِعَمِهِ، وشكرًا لكِ.

ظل ابنها مذهولًا وقال لها:

" أرأيتِ يا أمي ما لا نستطيع أن ننتفع به يكون أحيانًا مصدر حياة وفرحة لغيرنا، أنا لن أكون فيلسوفًا ولكن ابنه سيكون.

حتى وأنتِ في عز إحساسك بأنني قد خنتك ورسبتْ وفشلتْ ولكنك نجحتِ لتغمري أحدهم بالنجاح والتفوق والاستمرار في حلمه.

أنت امرأة محظوظة أيتها المرأة ويحبك الله".

صمتت وقالت: أيعقل أن يُصبح ابني فيلسوفًا من تجارب الحياة وصدماتها ؟!

رفعت يديها إلى السماء شاكرة الله وراجية منه أن يهدي تلك الروح المعذبة داخلها بهداية ابنها إلى رشده والطريق الصحيح.

ذهبتْ وهي في قمة رونقها وكأنّها الشمس، نزلتْ لتتمشى بين البشر، قررتْ أن تقتني له باقة من "زهر الأوركيدو" النادر المحبب إليه.

كانت تدعي أنه حبيبها وزوجها، وما كانت تدرك أنها عنده مربية لا أكثر، مرحلة لابد أن يمر بها وهو على مضددٍ من أمره، هي بالنسبة له قشةٌ في مهب الريح.

وهبت له الدفء فقلتها ببروده.

تغمره حتى آخر جمرة مشتعلة في نبض قلبها، هي تعشقه حد الانشطار لنصفين، نصف يتمنى أن يسكب به، والآخر لا يقوى بعاده.

تتناسى أنها في محرقة خيانته قد أُبيدت حيّة، وتشتاق للحظة تلاقي عينيها في محراب عينيه، لتبتهل إليهما، وتصلي على حبهما ليبقى، فطوبى لمَن يعتنقون ويعانقون سلام أرواحهم حتى يغفوا بين ضمائر الطمأنينة على سرائر قلوبهم .

تخيلت شخصًا يشبهه داخل محل الورد وتتعلق بيديه تلك المرأة التي هتف باسمها منذ 20 عامًا وهو في لحظة سعادة معها، وما هو إلا هو.

ولن تصدق مرة بأنه تغير.

فاستجمعت قواها التي ما اعتادت أن تخور أمام أحدٍ أيًا كان بعد ما صدقت نفسها بأنها لن تعيش دور المضطهدة بعد الآن مثلما كان ينعتها دومًا، ولم تكن أبدًا قطعة من الكاوتشوك المُعاد تصنيعه من السيلكون المجفف، أو شجرة صامتة ولربما هو قد رآها كذلك لتسامحها معه ومحاولة ترميم روحها وكأنها منزل يقاوم الهدم خوفًا منها من لفظة "مطلقة"، يهوى بها مجتمع ساقط إلى الأسفل.

ارتفعت روحها لتتحمل اللحظة وكأنّها من عَداد الموتى، فاقتربت وكأنها تقترب من حافة الجحيم لتنصهر فيه فإذا به هو. ..الذي أقسم لها بألا يخونها يومًا يشتري لمحبوبته القديمة "زهرة الأوركيدو".

خط

مسروقة

صدفةٌ حدثتْ ورأته بعد أعوامٍ في حفلٍ قد جمعهم سويا، حفلة زفاف صديقتها.

سألتْ نفسها، مَن أتى به إلى هنا؟!

عرفتْ أنَّه صديقٌ مقرّبٌ للعريس في غربته، وقد يحضر الفرح ثم يعاود الرحيل.

فلِمَ لا تغادر الحفل؟!

ألم تنضج بما فيه الكفاية لتدفن بقايا تشبثها به رغمًا عنها؟!

أيقدِّر هو ذلك؟!

ألم تعلن كُفرها بالحب بعد، فكيف تعرف أنه هنا ويحدث كلُّ ذلك الضجيج في تلك الرقعة النابضة في صدرها.

وعند التقاط صورة قامتْ وأسرعتْ ووقفت بجوار العروس لكي تجد صورة تجمعهم، فتروي عطش السنين من الحنين والاشتياق له فقد افترقا بعد قصةِ حبٍ تحدَّث عنها كلُّ الجيرانِ والأهلِ والأصدقاءِ.

تفاصيل ذكراه تمسح عنها مساحيق التحمل والصمود، تُظهر النزف الذي شقق وجنتيها في بعاده.

سيناريو حُبنا قد مُنع من العرض؛ فانحرقت أوراقه عمدًا على ضفاف نهر خيانة مَن زعمت صداقتها.

ليته يعلم ؟!

ويعاقبها القدر ويكتب أنَّ صديقة مقرَّبة تسرقه منها، وهو استجاب لقطعة نَرْدٍ بين الأيادي تنتقل.

واحتفظت بالصورة على جهازها المحمول (الموبايل)، علَّها تمنحها بعض الهدوء الذي يَرفي شوقها لعطره، فتعيق محاولاتها للنسيان.

ولا ترغب هي إلا أن تتذكره وكأنَّ حنينها فرض عليها أن يتلاقا، لا لأن تعيش، ولكن لتكمل مجابهة الموت في غيابه.

جاء والدها في آخر الحفل ليصطحبها إلى المنزل، وأثناء الرجوع يعترض طريقهما سارقٌ ويسرق منها (الموبايل).

تذكَّرَتْ ذلك اليوم الذي كانت تتمنى أن يرزقها الله بمولودٍ، وأن يضع رَحِمُها طفلًا تهدهده وتراعيه ويكون لها عونًا وسندًا في الكِبَرِ وبعد عشرة أعوامٍ من الزواج عانت فيهم ما عانته من سوءِ معاملةٍ، وهدرٍ للكرامةِ، ومعايرةٍ بأنها أرضٌ بورٌ لن يُزرع بها أي ثمرة.

أراد الله أن يسعدها ويمنّ عليها لأنها صبرت وأيقنت أنّ الله مع الصابرين فَمَنَّ اللهُ عليها بطفلةٍ رائعة الجمال، وكأنها الشمس عند الضحى، وكأنها الوردة عند سقوط الندى.

أقسمت أن تحيك لتلك البنت فستانَ زفافِها طوال فترة تربيتها... حتى بلوغها سن الزواج وتطرزه بأيديها، وترصّعه بكلّ ما تملك من مالٍ تقتني به الفصوص والأحجار الكريمة، وحتى ما تركه لها أبواها من ميراثٍ اقتنت به الألماس والفصوص الذهبية لترى ابنتها أميرة على عرش العرائس وتباهي كلّ من كان يعايرها بإنها عاقر.

فاعتكفت على ذلك الفستان مدة ال ٢٠ عامًا وقبل ليلة زفاف ابنتها تذكرتْ كلّ تلك التفاصيل وهي تتحسس الفستان بيدها المتجعدة وهي لم ترَ الفستان الذي حاكته يداها... لأنها قد أصيبت بالعمى.

يقظت

خلف هذا الضباب أتى مسرعًا ليراها خلف مَشْرَبِيَّةِ ذلك المنزل القديم الكلاسيكي.

كانت ترنو منه كالسرمدية الطاهرة، يشتاق لشربةِ ماءٍ من يديها الطاهرتين، ليتباهى في نفسه أنه قد خَطَا على خطوات سيرها، بل تاه في زوايا قلبها.

تقدَّم وتقدَّم نحو روحه فوجدها تنزف عشقًا، هي تحبه في خجلٍ وصمتٍ وكبرياءٍ وشِقاقٍ، وولعٍ وخوفٍ.

هي نجمة في سماء الليل، الكل يراها ولا يعلم أحدٌ ماذا تحوي، وكيف تكونت ونضجت وماذا عانت سوى ذلك النجم البعيد الذي كانت تحكي له ليلًا ما تمر به طيلة يومها وسط خطواته المتسارعة ودقات قلبه المتلهفة.

قد سمع صوت:

(اصحى يابني هتتأخر على جامعتك، حضرت لك الفطار، قوم بقى المنبه رن)

آیات قرآن

ذهبتْ إليه مترنحة في تلك الليلة الصمَّاء الشديدة الظلمة، والتي كانت على وشك هطول أمطارها، وكأنَّ الليل وسواده قد عقدا العزم على أن يخفيا بقايا جسدها الذي قد نُهش بواسطة قلوب لا تعرف الرحمة.

ظن هو لوهلة أنها ضعفت من كثرة صفعات القدر بها والبطش بأحلامها، وأنها قد أصيبت بالحروق النفسية، وأن روحها قد ماتت هنا في وسط كل تلك النيران التي كانت تلتهمها في نظرات عيون البشر لها، وكأنما يأكلونها حية.

خطفوها من والديها في بلدٍ شديدة الزحام، بهمومها ومشاكلها.

باعوها طفلةً في سوق تجارة الإناث كالعبيد والجواري.

ولكن تلك الطفلة مازالت تعي وتفهم كلام والدها لها، عن الدين وعن الأخلاق وعن الحفاظ على الروح طاهرةً نقية.

لا يدرك أبوها أنها سوف تحفظ كل هذه التربية عن ظهر قلب، وأنها سوف تكون جدارها الواقي من عالم الرذيلة واللا أخلاقي.

هم يظنون أنَّ كل مَن رُمي في النار سوف يتم حرقه، ولكنهم تناسوا أنَّ بيننا مَن رُمي في النار ونجا لأنَّ ربَّه أراد له النجاة.

وربما ليست النار وحدها ما تفعل بنا التشوهات الجسيمة، فبعض البشر يفعل ما هو أشد من النار عذابًا، لم يأتِ على بَالِهِم ولو لوهلةٍ أنَّ بعضَ القلوبِ تظل نقيةً مهما تلوثت الأجساد.

أشلائها متجمعة داخلها حول صومعة أنشأتها هي لتحمي فُتات وربما بذور لو أعادت سقياها لأنبتت روحًا عامرة طيبة خلوقة، لا تعرف من الأذى إلا نظرات عابرة.

أحتضنها بشدة في محاولةٍ منه أن يضمد جروح روحها.

فخافت وارتعدت، ونظرت له نظرة ملامة وحزن وعتاب.

فأعاد التفكير ثانية، ربما هذا ليس الوقت الذي سأخبرها فيه بحبي لها، ربما لم يأتِ الوقت بعد، وربما أيضا هي لا تريدني أنا، يتسأل في حيرة، وإذا كانت لا تريدني فَلِمَ جاءت إليَّ في مثل هذا الوقت من الليل؟!

لم يكن يدري أنها هربت منهم، تطالب بحرية الأمل وبمساحة تشعر فيها أنها ما زالت حرةً آمنةً.

وكيف يكون الأمن وكل من يراها يختلس منها نظرةً هي نظرة لعوب وحُبٍ واهم كذوب، وحتى من ذرف الدمع لأجلها وأوهمها بحبه لها كانت دموعه كدموع التماسيح، أرادها فقط لشهواته وملذاته.

"أميرة " هذا هو الاسم الذي تتذكره، و تأتي ذاكرتها به بمجرد أن تسمعه يقال على لسان أي شخص، ولكن مَن سرقها من والديها قد بدلوا اسمها إلى "أحلام".

فهل لأحلامها نصيبًا من اسمها، وهل لآلامها نصيبًا من شفائها.

كانت طفلةً رائعةَ الجمال، ذات العينين الزرقاوين مثل أمواج البحر الأحمر، والشعر الذهبي الذي ينبأ عن سنابل من القمح والخير ستغزو حياتك وتلك الشامة التي تعلو جبهتها وكأنَّ القدر أراد لها ترك علامة.

كبرت مع من لا يرحم، ولا يدرك معنى الحرام والفرق بينه وبين الحلال، ففعل بها ما لم يرضَ أن يفعله بجارية، من ذلٍ وامتهانٍ وتعدٍ وحرمانٍ واغتصابٍ لكلَّ ما هو حيّ بداخلها.

استغل كلّ سنتيمتر مربع في جسدها بينما كانت طفلة حتى غدت شابة عروسًا بهية الطلعة، عَلَى مَرْأى وَمَسْمَعٍ مِن تلك التي ادعت أنَّها أمّها.

اشتكى منه حبات العرق التي كانت تسقط منها عند كلّ لمسةٍ قذرةٍ مقيتة، وكأنه كلب ضال ينهش بقطع لحم في عرض الطريق ولا يخشى لومة لائم ولا آدمي يلقمه حجرًا فيجريه بعيدًا عنها، ظنًا من جميع سكان الحي الذي يقيمون فيه بأنها ابنته بالفعل.

ساعدته الأم المزعومة في أن يتوسط لها أن تعمل في تلك المحل السيء السمعة، لتكون لمن يدفع أكثر، ولمن يهوى الجمال، ولمن يسكن مدن الليل والفحشاء والرذيلة، ولمن لا دين له ولا خلق.

كل تلك الأفعال والأحداث بينما أحلام تعي تمامًا أنها أميرة.

وكل تلك الأحداث ما هي إلا عابر سبيل وسيمر.

هي تعودت أنَّ الأشياء المُرَّة مهما بلغت مرارتها ستمر، وأن الحزن لابد وأن سيأتي بعده الفرح، وأنَّ الصبر بعده فرج، وهذا ما كان يرن بأذهانها طيلة العمر السابق، والطفولة المسروقة.

تلك كلمات والدها لها، إنها المعجزة التي أهداها إليها القدر أن لا تنسى ما تربت عليه.

كلهم حاول معها وبشتى الطرق إلا هو.

هو قد رأها بعينٍ أخرى غير تلك العين المجردة من المشاعر التي تعودت أن يبصر بها الناس إليها.

كان يشعر أنَّ لديها سِرًا وأنَّ لها شأنًا آخر غير الذي تظهر به.

يعلم من داخله قوتها على منح الأمل لنفسها.

يغمض عينيه وهي تجيء وتروح أمامه لكي يراها بقلبه.

يشعر بقوتها وكأنها أسقف بنيت من خرسان.

ولكن كيف ذلك مع أبوين كأبويها، وظروف كهذه الظروف.

رجعت لبيتها تلك الليلة لترى المزعوم أباها ينتظرها وعيناه كَهَالةٍ من العذاب ستأتي عليها لتذيبها.

قررت ولأول مرة الهروب، ولأول مرة تقرر الحياة.

رجعت بظهرها للباب، وكأن ذلك الرعد بالخارج كان ينادي عليها بأن ترحل.. تنتشي قوة تتجرأ على قول لا لا وألف لا.

وربما قد علمت أن أحدهم يراها بمنظور مختلف.

ولأول مرة تهرب مع البرق.

وتجري وتجري تحت الأمطار المتساقطة عليها فتراه يخرج من المحل، وهو يلتفت عليها ولكنها تختبيء لكي لا يراها.

لا تريد أن تسير معه فيدركهم أحدهم ويفتك به وهو طيب وليس له في العراك مع أي شخص.

تتبعته إلى منزله، حتى دخل وأدلف وراءه باب المنزل، فسارعت بالتنقير على الباب حتى لا يسمعها الجيران.

فتح لها الباب في حالة من الذهول واللا تصديق.

حاول أن يهدّيء من روعها، فأطمأنت.

قام ليتحضنها فخافت لوهلة، أن حدسها لن يكذبها طيلة عمرها هو ليس كغيره من الرجال، هو يدرك روحها وليس شيئًا آخر.

وفي لحظة ما قرر أن يسألها:

"ما بكِ؟، مَن أنتِ؟، أنت لست على ما تبدين عليه، أنتِ مرغمة على ذلك، أنا أرى داخلك.. وكأنك أميرة على عرش النساء".

فردت أميرة:

نعم أنا أميرة بنفسي وبعزتي وبصمودي.

فلمعت عيناه، راح يتحول، تتبدل ملامحه، تخطو أطرافه كلها نحو خطيئة ما، يتحسس جسدها، وهي تكاد تُجن، لا ليس أنت، جئتُ احتمي بك، جئتُ لتعيدني إلى روحي، لا أن تسلبها مني، لا تفعل مثل ما يفعله كل البشر معي، وعدتني عيناك أن لا تؤذيني.

بدأ يتعارك معها، يشدها من خصرها.

تقاوم هي وبعنفٍ، لا تفعل مع كل الناس هذا، اعتادت أن تنسحب منهم بدون عنفٍ وبهدوء، ولكنها الآن باتت تحاول أن تمسك بشيءٍ تدافع به عن نفسها.

ولكنه لا يلتفت لذلك، يكمل ما بدأه، فقد اعتلت شهوته، وتحكمت به، وضل سعي من يفعل ذلك، تموت منه مشاعره وهو على قيد الحياة.

ظل يجذبها نحوه في منتهى القسوة والعنف مكبلًا يديها، بعد أن أصابت نفسها بجرحٍ غائرٍ في بطنها، يسيل لعابه الدنيء عليها، لم يرَ الجُرحَ أو عله لم يهتم به، يدركها كمحترف في عالم الاغتصاب، كمراهقٍ فرضت عليه الظروف فتاة الكل يعرفها بفتاة ليل.

لم تقدر أن تقاوم بعد الإصابة.

تبًا بللت عذريتها جسده، وبكارتها صفعته.

وهو بخيانتها قتلها.

ماتت مرتين، مرة حين وثقت ومرة حين اغتصبت، وكانت تستند عليه. صعدت روحها وخرجت بكامل إرادتها بعيدًا عن عالم لم يتقبل البراءة وأنثى بتول.

أميرة بها علامة ولعلها هدية من السماء لأجل أن يعرفها بها أهلها وهي متوفاة في تلك المشرحة عندما امتنع خاطفوها عن استلام جثتها.

قامت المباحث بنشر صورتها والشامة على جبينها فاستدل أهلها عليها.

ولكنها جثة صماء. وعزاؤهم في وفاتها أنها رجعت إليهم مدافعةً عن شرفها.

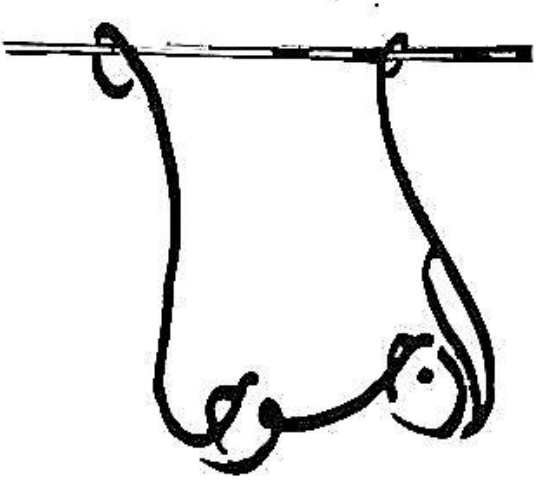

تتجهانِ معًا نحو تلك الحديقة، ممسكتين بيد بعضهما البعض، فَرِحَتَينِ، لا تدركان أنَّهما ذاهبتان إلى القدر حيثما يسمَّى.

تتعاركانِ أحيانًا، وتتمازحانِ معظم الوقت.

تلك الأرجوحة ثابتةٌ لا تتحرك، إنها تنتظرهما، هما تقودان مسيرتها.

تتسابقانِ بسيقانهما الرشيقة والرفيعة نحو ورق الأشجار - تبتسمان للحياة بكامل طاقتهما - من فيهما ستحركها أولًا، فتقع واحدةٌ على الأرض صارخةً:

انجديني يا "ريهان".

فرجعت أختها لتنجدها وإذ بها تقوم وتجري مسرعةً لتلحق بالأرجوحة، فهما قد تَحَدَّا بعضهما مَن ستصل أولًا.

فضحكت "نور" لأنها اعتادت على الخديعة من "ريهان" طوال الوقت، ولكنها تغاضت مثلما تفعل مع أبيهما في المنزل عندما تُحدِث ريهانُ الفوضى والعبثَ بالمنزلِ وتخبرهم أنَّ "نور" هي مَن فعلت.

واعتادت نور على الصمت وعدم الرد للخوف على ريهان الصغيرة من العقوبة وتحملها عنها، تناست أنها في تلك الأثناء تحطم روح أختها ولا تكبر سَوِيَّة وأنَّ فعلها ليس بصواب.

و لأنها ما زالت طفلةً لاترى الأشياءَ بعينِ الوضوح، وما زالت لا تعلم أنَّ حقَّها لن يُؤتى سوى بالدفاع عن نفسها أحيانًا.

تغاضت وسامحت حتى أيقنت ريهان أنَّ أختها نور لابد أن تأخذ عنها كل الجراح وكل العقاب وتفرح وتضحك وتنتشي روحها بل وتتلذذ حينما ترى أختها تتلقى الضرب والتعنيف عنها.

وصلت ريهان إلى تلك الأرجوحة أولًا وأشارت لنور لتغيظها مثلما يفعل الأطفال.

ضحكت نور مجلجلة فرحة، قائلةً: "أنتِ أختي، وصولك وصولي، وفوزك فوزي، وأنتِ طالما تخترعين الحيل ومع ذلك أنا أسامحك يا صغيرتنا، يكفي أنَّكِ هنا تمرحين وتلعبين معي".

ريهان: "نور أرجوكِ، اتركي الأرجوحةَ تتجه بنا حيثما تريد، فقط اتركيها لنمرح فالهواء الطلق معها، لِمَ تريدينها موجهةً دائمًا إلى ضوء الشمس؟!

أنا أكره الشمس، هي تخترق عيني فتجعلني أدمع ولا أستطيع الرؤيا".

نور: أنتِ دائما تقولين لي هذا، وأنا أقوم بنفس الرد، أنا أعشق رؤية ضوء الشمس، وهو قادرٌ على السطوع، ينبئنا بخيرٍ قادمٍ، بزرعٍ

سينبت، المعلمة في المدرسة أخبرتنا أنَّ النبات لا ينمو إلا بها، وأنا أعتقد روحي نبتة يا ريهان.

تسخر ريهان من كلام نور.

نور تكبر ريهان بأربعةِ أعوامٍ، نور في الصف السادس الابتدائي بينما ريهان مازالت في الصف الثاني الابتدائي.

اعتادت نور أن تصاحب الفتيات المتفوقات وأن تنتقي من أخلاقهن مَن تشبه أخلاقها من تربيةٍ واحترامٍ وهدوء، بينما ريهان لا تترك أحدًا إلا تحادثه، صِبْيَة وبنات مع مختلف الطباع والأخلاق.

نور كبرت قبل أوانها بمعرفة تلك النوعيات من الأطفال.

ورغم صعوبة تحريكها وجهت نور الأرجوحة صوب الشمس ونظرت في اتجاهها، متحدثةً إليها:

"أرى نفسي عندك، أشعر أني أشبهك بشيء أيتها الشمس الوضّاحة الثاقبة للزجاج، أرى نفسي واضحةً كمثل نورِك، حتى اسمي مستمد منك".

بينما تصعد الأرجوحة للأعلى وتهبط للأسفل تتحدث نور للشمس، وتنتظر لتصعد فترى الشمس من خلف حائط الحديقة، ثم تنزل

لأسفل لتضحك على ضحكات أختها الصغيرة التي تنبأت لأختها نور بالجنون.

ريهان - في نفس الوقت - : أنتِ تتحدثين مع نفسك!، يا لكِ من بلهاء. هكذا كانت تفعل المعلمة في المدرسة اللعينة حتى أخبرونا أنَّها جُنَّت، هاها.. جُنَّتْ يا نور وذهبوا بها إلى المستشفى النفسي في آخر الحي.

حزنت نور من كلام ريهان، ولكنها لم تتوقف وظلت تخاطب الشمس، بينما ظلت ريهان تذكر ذلك الموقف السخيف ولحظة انهيار المعلمة في المدرسة أثناء محاولتهم لإمساكها بتهمة المرض النفسي والجنون.

فعلوا ذلك حتى آخر النهار ومع وداع الشمس قرروا الرجوع إلى المنزل.

وفي طريق العودة، نطقت ريهان: أتظني أن ذلك سيحدث.. ما تتحدثين به مع الشمس، أظنك غبية مع كبر عمرك عني بمراحل، هاهاها أنت غبية يا نور.

ضحكت نور ولم تلتفت لكلام ريهان بتاتًا؛ فهي في حالةٍ من الفرح تشجعها لفتح كُتُبها واستذكار واجبات الليلة والتحضير لدروس الغد، فهي طالما كانت متفوقة في الفصل.

بينما ريهان ذهبت لتتناول عشاءها وتنام، فهي لم تهتم يومًا بالواجبات قط، وتتلقى يوميًا العقاب في المدرسة حيث لا توجد نور لتلقي العقاب عنها.

فِي بعضِ الأوقاتِ تضطرُ لأنْ تنالَ عقابَ أفعالِكَ بنفسِك، وفي بعض الأوقات تضطر لتحمل مسؤوليةً غبت كثيرًا عن تحمّلِها ولكنّك وقتها تدرك رسوبك وفوات الأوان.

لا يوجد نسخة من نور بالفصل لتلقي العقاب عنها، تتمتم ريهان قائلةً لنور ذات ليلة : "لو لي نسخة منكِ في المدرسة يا نور ما كنتُ سأُضْرَب، كانت سَتُضرَب هي، هاهاها أقصد أنتِ".

فترد نور قائلةً: " لو كان لي نسخة أخرى ما كنتِ ستعاقبين، لأني سأكون من المتفوقات".

تمر الأعوام، وتكبر الفتاتان، ولكن نظرًا لمرض أبيهما ووفاته مبكرًا تترك نور الجامعةَ في عامها الثاني.

بينما تكتفي ريهان بالوصول إلى المرحلة الإعدادية وتخبرهم أنَّها أنهت دراستها، وما لها طاقة بأي تعليم، وأنَّ ظروفَهم العائلية ما عادت تناسب مصروفات التعليم وغلاء أسعاره.

وبينما أمهما ما زالت لا تفهم أنَّ شتآن بين صفات الفتاتين، فعندما قررت ريهان عدم الاهتمام أو إكمال دراستها، قررت أن تعاقب أختها نور وتحرمها من الذهاب إلى الجامعة وإكمال تعليمها، الأم ما زالت تُصر أن أخطاء ريهان تتحملها نور.

وعند أول عريس يأتي لخطبة نور قامت أمها بتزويجها، مدّعيةً أنَّ الشرف لابد أن نحافظ عليه بالزواج.

حاولت نور جاهدةً أن تحبَ هذا الزوج وتتفانى في خدمته.

بينما ريهان ترفض كلَّ عريسٍ يأتي لخطبتها، وتتشاجر مع أمِّها ويعلو صوتهما ليصل إلى الجيران، وأمها تعلم تمامًا سبب رفض ريهان.

إنها على علاقة بذلك الشاب الفاشل الذي يجلس على قارعة النواصي والشوارع ويصاحب أصدقاء السوء.

بعض الأحداث لن ندرك مدى سوءها إلا بعد فوات الأوان، يكون بساط تحكمنا في الأمر قد انفلت من تحت أقدامنا، وصارت بنا الأقدار إلى حيث ما لا نريد.

نشأ بين نور وزوجها علاقة من الود والرحمة التي أمرنا الله ﷻ بها، فدعمها وكان بجوارها حتى أكملت تعليمها وصار معها الماجستير في التربية النفسية، وأنجبت ولدين كانَا نِعْمَ الأخلاق والتربية، وكلُّ مَن يراهم يشيد بحُسن تربيتهم.

كانت ريهان في ذلك الوقت قد تزوجت ذلك الشخص التافه السيء السمعة، صممت ووضعت أمَّها تحت هذا الضغط الذي طالما كانت تفتعله زاعمةً إنها ستنتحر إن رفضوا لها طلبها.

وربَّ موتٍ يأتي بذكرى جميلة تخلدنا خيرًا من حياةٍ بلا قيمةٍ دون جدوى من وجود تلك الروح فيها.

وكما عاهدناها هذه الأم التي دلَّعت حد السوء والهلاك.

ولدت ريهان ولدًا واحدًا، وهي ما زالت بنفس الطباع فكيف لفتاة لا تعرف كيف تختار زوجها، كيف لها حين تربي ولدها؟!.

ذهبت به في يومٍ إلى أختها نور في بيتها لتصطحبها إلى الحديقة.

نعم هي نفس الحديقة التي اعتادتا أن تذهبا إليها في صِغرهما، وعند نفس الأرجوحة وقد اعتلاها الآن طفلان على عكس بعضهما البعض ، والاختلاف يتضح في أخلاق الطفلين.

قالت ريهان لأختها نور:

"هل لكِ أنْ تقوّمين ابني؟

أنتِ كنتِ دومًا عاقلةً وها أنا أعترف أمام تلك التي رأت وسمعت كلَّ أحلامك واستهزائي بها.

تلقيتِ الضربَ عنّي لأعوامٍ ولم تَحْكِ ولو لمرة لأحدٍ أنني الفاعلة، أسأتُ لكِ الكثير والكثير ولم تغضبِ عليَّ ولو لمرةٍ واحدةٍ، كنتِ دومًا بالنجاح مكلَّلة، أنا فخورةٌ أنَّ لي أُخْتًا مثلك، مات والدنا ولم يعرفْ أنني كنت دومًا الفاعلة لكل تلك المصائب الجمَّة، وكنت دومًا فَرِحَةً بتلقيكِ العقاب عني، أشعر أنَّ حياتي دُمرت بسببي، هذا ذنبك وليس شيئًا آخر".

ضَحَكت نور مثلما كانت تفعل دومًا عند سماعِ كلام أختها، ولكنْ هذه المرة اغْرَوْرَقَتْ عيناها بالدمع، وردت قائلة:

"هل تعرفين كم من مرةٍ لم أقدرْ على النومِ بسبب آلام الضرب المبرح.

هل تدركين حجم تعبي النفسي بسبب كذبك وإلقائك التُّهم جذافًا عليّ.

ما أردت لكِ العقابَ فعلًا أي يوم، ولكن كنت أرجو أنْ ترجعي عن أفعالك، وأن تعودي لصوابك.

لم أدرك أنني كنت مخطئة وتسببت في قتلك.

نعم أختي، أنا قتلت فيكِ روح الصدق، أنا مَن فعل كل تلك الأنانية بكِ.

أتدركين أني أتمنى مرارًا وتكرارًا أنْ يعودَ الزمنُ بنا إلى الخلف لأعترف عليكِ، ربَّما لو كنتُ فعلت ذلك لكان أَقْوَم لك وأصلح وما كان وصل بكِ الحال إلى ما أنتِ عليه.

ما لا تدركينه ولم أحدِّث به الشمس جهرًا ولكنني قمت به سرًا... أن تشهد تلك الأرجوحة على انكسارك وضعفك واستهزائك بي.

أنا قد فهمت من دراستي وقراءتي أنَّ الظروف لن تكون أبدًا إلا أرجوحة، وعقلنا يوجهها حيث يشاء، فوجهتها نحو الشمس والأمل والحياة والحُلم، وأنتِ وجهتها إلى أين يا حبيبتي؟!

إلى كُرهي، وكره نفسك، وفشلك، ومعرفتك بأشخاصٍ ليسوا أسوياء.

تعمدتي الاستهزاء بمعلِّمتك بينما هي كانت تعاني أيضًا من ظلم البشر لها، نعم لقد عرفت قصتها عندما كبرنا، هي ظُلمت من حبيبها ظلم البشر لبعضهم، فقد تزوج صديقتها، ولكنها كانت ضعيفة فجُنَّتْ، كان من الوارد جدًا أن يكون مصيري مثلها، فأغلبية من يريدون حياةً صريحةً وواعدة بالحلم يجنون تلك الحقيقة التي تجهلها ولم ولن تعي بها يوما.

رغم كل محاولاتك الفاشلة في صنع شخصية عكس ما أنا عليه تغلبت على كل تلك المحن، وأنتِ لجهلك وتسرُّعِك وحبِّك لنفسك والغرور بها توقعتِ أن تمشي معك الظروف فتناسبك.

من قال لكِ أن الظروف تسعى بنا، نحن مَن يصنعها ويوجهها، وأنتِ الأن هنا لأنك فقط مررتي بالمحن وتأرجحتي فيها و " تَعَلَّمْتِ الدَّرْسَ"

القصة الأخيرة لمولانا

بدايةُ حلمٍ وحكايةُ اسمٍ.

طالما اشتاق الوالدُ أن يُولد له ذكرًا ليحمل اسمه من بعده، مثلما يفكّر كلُّ العربِ، وكلُّ الرجال أولاد البلد يحلمون بالطفل الذي يكون لهم خليفةٌ يعمّر الأرض، حتى لو لم يكونوا حُكَّامًا ولا مُلوكًا، حتى وإن لم يرث منه ابنه سوى الكرامة والشرف والعزة.

هو أراد الصِّبْيَةَ، ولكنَّه رضي بالإناث وحمد الله على نعمه.

والرضا ساوى التمني!

جلس أبي معي ذات مرة في شرفة بيت جدي الذي عشقتُ زواياه، وعرفتُ رائحتَه الممزوجةَ بالعود، والريحان الذي زرعناه فوق سورها، وكنَّا كثيرًا ما نتسامر سويًا عن تلك الأيام التي مرت عليه في شبابه، أسرق منه حروفه التي كانت تسكن بفكري وعقلي، ورواياته التي ارتشفت منها خبرته.

لا يهمني إن كنتُ بنتًا أو ولدًا، ذكرًا أو أنثى، فقط بنظرة من عيوني يعرف أني أمامه بشرية تريد أن تتعلم عن الدنيا، مصممة على أن تقتحم أقفالها لأكتسب منه بعض خبرات الحياة، فقط كلّ ما يهمني أن أهدأ داخل طور عالمه، وأسكن فيه.

وكان الوقت ما بعد وقت الظهيرة، والشمسُ مائلةٌ بصفرتها الذهبية إلى الغروب، تاركة كلّ هموم الناس وراء ظهرها، فقط ناظرةٌ إلينا، متشوّقةٌ لحديثِنا، وكأنَّها تناشدني بإغراءٍ أن أدعوها لتمكث قليلًا معنا لتجارينا أطراف الحديث الشيّق.

وكنت أستمع إليه مسارية له ولحرفه كَجَاريةٍ ملتزمة الهدوء، وكتلميذةٍ في محرابِ العلم، وكانت عيني تشعر بالذنب إذا رمشت عنه وغاب عن ناظري تلك اللحظة.

شاهدتُ أبي، الرجل الذي أحببته ليس كمثله أحد رغم كبر سِنّه، لم يظهر عليه الانكماش بعد، ولا عجز الجسد والروح، تغمره رهبة رجل الحرب الجسور الذي خاض بروحه كمحاربٍ بالجيش المصري، دفاعاً عن أرض سيناء الحبيبة الحزينة.

يسرد لي قائلا : "قبل رحيلي عن الدنيا سأحكي لكِ أشياءً فأحفظيها، ستحتاجينها يوماً ما".

لم يقصد ذلك الرحيل الذي تعني به المسافات، ولكنه قصد رحيلًا ينتظر كل من خلف بوابة الزمان والمكان.

جلس يشدو حروفًا من نور و لماذا أطلق عليّ اسمَ "شاهندة" - على روحك السلامة أبي- وكأنَّه أهداني بهذا الاسم بعضَ اللآليء

والياقوت، أو زهرةً من "الأوركيدو" الرائعة، أو بعضًا من الأحجار الكريمة التي يلهث وراءها البشرُ في كلَّ حين ويبحثون عنها فلا يجدوها إلا في سراديب الحكايات والأسرار.

جلس ينقش على اسم شـــاهندة أروعَ قصةٍ عرفتها.

من حكايتها كنت أتعجب لِمَ هذه اللمعة في عيون أبي؟!

تراه يُخفي لي مفاجأةً كما اعتدت منه دوماً؟

ولكن مع اقترابه مني عرفتُ أنَّ مفاجأته ستكون قصةً تُروى لي أو لصديقاتي مني، وطالما كان يفعل وكنت أفعل ولا أتخيل يوماً أنها تختلف عن كلِّ قصصه، فهي عني، وأنني سأرويها لأولادي ولكم.

أخذ يجمع أبي حبات الكلام ليدخل في صلب الرواية، وكيف اختار لي اسمي، سرد يقول :

"قال لي الطبيب يومًا ليس مسموح لك بالزواج، ولكنَّه نفس الطبيب الذي أجرى لي عمليةً بالقلب بعدها، وكنت أظن أنّي لن أبرأ منها وأنها ستكون نهايتي لخطورتها، فهي كانت عملية " قلب مفتوح " ، وكنت من أول عشرة في مصر قاموا بها على يد الدكتور الرائع مجدي يعقوب .

وأخبرني الطبيب بعد شفائي أني الآن أصبحت قادرًا على الزواج بعد إجراء تلك العملية".

نعم أبي كان بمقام جدى، جدي الذي لم أره يومًا .

كان هو الذي يهب لي الضحكة، والدلع، والنكتة، والترفيه، وأحيانًا يلاعبنى لعبة (الغميضة).

كان يراقصني ويسمع نكتي الغير مضحكة فيضحك، ويمسك معي القلم ليعلّمني كيف أبدأ الكتابة فوق السطر وكيف لا تنحرف حروفي للأسفل، كيف أحادث الناس وكيف أعرف عنهم بدون سؤالهم.

ولكن عندما عرفت كيف اختار اسمي، عرفت لِمَ سميت ب "شاهندة"، ولِمَ كنت دائماً أبداً عاشقة لمحمود.

كانت أمي حاملةً بي فى شهرها السادس، حين سمع أبي مسلسلًا إذاعيًا بالراديو تحت عنوان (شاهندة فتاة الخليج العربى)، وكانت البطلة شاهندة تعشق البطل محمود، وتتحدى الألم والظروف والوطن والخليج كله للزواج من حبيبها، وهنا ضحك أبي واحمَرَّ وجهه ووجنتاه .

لا أنكركم خبرًا أنَّ أصولنا تنحدر من تركيا، أي أنَّ جمالَه كان خلابًا، فلا يخفى عن العيون المبصرة ذلك الوجه الشديد البياض، والجلد الأملس الناعم البشرة.

وكان يتذكر أبي جدته كثيرًا وهى تنهره بالتركي قائلةً:

"انتي ڤلاد، انتي عايزة تنضربي ولا إيه، أداب يوك، أخلاق يوك، أما يوصل علي ابني بالسلامات سوف يكون عقابك قاسي "

والقلب الأبيض الذي تمتلكه فتنسى حين عودة جدي فلا تخبره أي شيء.

وعندما يكون اسم أبي محمود، وولادتي تكون أنثى؛ فلابد كل البدّ أن أكون أنا تلك ال "شاهنداه" عاشقة محمود الأب والجد والأخ والحبيب والعزوة والأهل والقوة والسند.

هو تلك الروح التي كانت تدعمني لآخر نفس لها.

وحكى ما حكى لي وقال سوف ترويها يومًا لأولادك، ولم يكن يعلم أني سأرويها لجمهوري، ولأصدقائي يومًا ما على موقع يسمى " الفيس بوك"، وستكون في مجموعتي القصصية أمامكم تُحكى.

قلتُ :استرح يا والدي الآن .

لكنه لم يكف عن الحديث الممتع، وربتُ على كتفه! قلتها له ولكني لم أريده أن يصمت.

وطالما أنَّ الحكايات ستروى، فهي من أعماقنا، لا ولن تنتهي، ولأنَّ النهايات دومًا بدايات لحكاياتٍ جديدةٍ آمنتُ داخلي بأنَّ أبي يرويها لي لشيءٍ ما، لهدفٍ ما، يرمي بذرةَ زهرةٍ في بستانٍ ما لأحصدها أنا عندما أكبر.

وعندما كتب القدر في المسلسل أنَّ شاهندة من نصيب محمود، وكان قدرًا لي أنَّ والدي محمود، وكان قدرًا لي أن أحب زوجي محمود وأتزوجه، ولطالما أكون معه لنهاية رحيلي، ووضعي فى قبري، وتكون شاهندة قصة تروي معنىً لعمق الحكاية، وليست هامشًا في سطر.

تغيرتْ ملامح وجهي أمام أبي.

أحللت ضفائري في وجه شمس ذلك النهار وبجوار الريحان والعود، وروحت أتخيلني وسط قصيدة يتدفق من بين حروفها الأمل والحب والنجاح والإصرار، روحت أعزفُني لحنًا يُظهر قمرًا ينير عتمة الليالي الحالكة الظلمة، فأجدُني أشق طريق الصمود وحدي مكللة بروح أبي، متزينة بتاج الأخلاق الذي أهداني إياه ذلك الرجل الذي أهداه الله إليّ.

أصعد معكم جبل الحلم الشاهق، وأراني متكللة بالوصول لقلوبكم، أتحسس خُطُواتي نوبةً بالرقة ونوبةً بالرفق وأخرى بالصراحة والوضوح والأخلاق، وركضت بعقله الواعي أبحث أكثر عن تفاصيلي في روايته.

خفتُ من مجمل الرواية وعرفت أنَّها ليست بعادية وإنما سترتبط حكايتي بالتاريخ، وبالأدب، وبالفن، وبالثقافة، لأنَّ أبي هو الرجل، الحسّاس، الفنان، الشاعر، فليس الشعراء وحدهم يفعلون.

بعض الأشخاص داخلهم شعراء ولكنهم لا يعلمون.

وأدرك أنَّ شاهندته ليست بأي امرأة، وأنني لستُ أنثى مهمشة أو ستلقى فارغةً يومًا ما على قارعة الطريق.

وجدتُني بين أعماق رحيله ومع تلك المسافات.

أبي مازلت أنت معشوقي، وعاشقي، ومسميني، ووالدي.

ما معنى الرحيل وأنت بين حنايا القلب والحرف والسطر؟!

حتى وجودك في الموت ومن خلف الزمان والمكان هو قوة لي من محمود الأب، وها هو الزمان يهدي إليَّ "محمود" الزوج فتلك نبوءة وتحدث.

ضریم باشیم

نهره ابنُه وهو يشعل تلك السيجارة الملفوفة بقطعةٍ من الحشيش، قائلًا له: "نتعاير بسببك، يبتعد عنا أهالي القرية بسبب أفعالك.

لِمَاذا تؤذي نفسك وتؤذينا معك؟

لِمَ نحن؟

لا نستحق ذلك منك.

ينحني ظهرُ أمّي وهي جالسة على قارعة الطريق لتبيع للمَارَّةِ الخضروات والأطعمة".

ولا يعرف أنَّ الأب تموت فيه النخوة من أجلِ الكِيف، ويرسلها مرغمةً لتجلب له المالَ من صاحبِ المنزلِ الذي يقطنون فيه، تنسال كرامتها أمام الرجل الذي يعرف كيف يستغل الموقفَ جيدًا، بعض النقود السلف مقابل بعض القبلات والأحضان حتى وإن كانت المرأة غير جميلة فهو يعرف كيف يجعل اللحظة تناسبه، وعقله هو الآخر غير مهتمٍ حتى بملامحها فهو الآخر غريق في دنيا المخدرات.

يحدث كلُّ هذا بدون علم الابن الذي يكمل قائلًا:-

" أمي تأتي بدلًا منك بالمال، وأنا أغطّي تكاليف جامعتي بصعوبة، وأساعد كلَّ زملائي في عمل المَلَازِم مقابل الأجر المادي وحصولي على بعض الفكَّة التي أضعها بجيبي للتنقلات، وأنت وسط كلّ هذا لا يهمك إلا نفسك، نفسك وكفى.

قم يا رجل أرهقتنا ظلمًا؛ فالموت خيرٌ لك من الحياةِ وسط كلّ هذا الظلم".

صمت الأب وبكى بكاءَ طفلٍ صغيرٍ تركته أمُّه من ساعاتٍ ولا يهتم لأمرِه أحدٌ فسقط من على فرشته ليرتطم بالأرض.

فالمخدّرُ أفقده الصلابةَ وجعله هشًا مثلما هشت روحه تمامًا.

سكت الابن وقام لينقذ والدَه حاملًا إياه من على الأرضِ وَلامَ نفسه متأسفًا لأبيه :

"أنا ما كنت أتعمد ذلك يا أبي، أنا آسف، ولكن حياتنا في تلك القرية الصغيرة يُرثى لها، ينظر لنا الناس تلك النظرة المقززة والمشمئزة منا فنموت وأنت حتى لا تدرك، أَلَمْ يَأْنِ لك أن تتوبَ وتقلعَ عن تلك الأفعال، ارجعْ إلى الله، وعد إلى صلاتك والعمل في الأرض، فنزول عَرَقِك من شدة تعب العمل أهون ألف مرةٍ مما

وصلت إليه وهو عزتنا وشرفك، أنت قدوتنا فلتكن كذلك طول العمر، تُبْ يا أبي واستغفر الله وصلي له، إنَّ اللهَ غفور رحيم".

نهض الأب على غيرِ عادته ذاهبًا إلى دورة المياة، مشمّرًا عن ساعديه، مستعدًا للوضوء.

توضأ وهو يستغفر الله، وها هو قد شَعُر أخيرًا بالذنب.

بعضنا يعلم تمامًا طريقَ الخيرِ ولكنه ينتظر مَن يصطحبه غصباً من يديه إليه.

صلَّى ركعتين في المنزل، وجمع كلَّ قطعةِ مخدرٍ بالمنزل وأضمر بها النار، وخرج ليصلي العشاء مع أهل القرية وهو يُأَنِّبُ نفسه ويلقي عليها التُّهم لتآمرها عليه بأن يفعل السوء والمُنكر والبغي، يحدِّثها كيف سأذهب إلى المسجد بعد كلِّ هذه المعاصي، لابدَّ أن يكون الموت سبيلي الوحيد.

وهو في طريقه للمسجد الظلام يشتد، والهواء يصدر صوتًا غريبًا، ربما لم يكن الهواء، بل هو شيء آخر بات يحدثه:

" يمكنُني أنْ أكونَ مرآتَكَ التي تعبثُ بكَ؛ لتُريكَ الجميلَ في روحِكَ القابعةِ هناكَ في تلكَ الزَّاويةِ المتآمرةِ عليكَ، ولكنْ لا يمكنُني أنْ أُريكَ

كيفَ يراكَ النَّاسُ بعينِهم المحدودةِ اللَّا بصيرةِ، أو كيفَ يشعرونَ لأجلِكَ؟، رُفاتُ روحِكَ لنْ يرشدَهم إليكَ، أفكاري غيرُ المحدودةِ تتبخَّرُ حينَ يشعرُ بكَ الآخرونَ بما يريدونَ أن يشعروا به، وأتبخترُ، لأمشيَ بكَ عكسَ ما يتوقَّعونَ.

قبل هذا الزَّمانِ بأعوامٍ فقدْتُ عدَّها قد وعدْتُكَ ألَّا أتركَكَ، فأنا وُجِدْتُ لأصنعَ لكَ ذلكَ المشهدَ الممزوجَ بالألمِ..، هل تراه؟، هل تشعرُ به؟.

لا تستطيعُ أن تصفَني، أو تعلمَ اسمي الصَّحيحَ.

هوَ فقطْ مَن يعلمُ مَنْ أنا؟، ومَنْ أنتَ؟."

فصدَّق الكلام واقتنع به، هو حتى لم يعلم من كان يحدِّثه.

غيَّرَ اتجاهه إلى البحيرة الجارية عند أول القرية، إنها عميقة بما يكفي لتبتلع إنسانًا بحجم شجرة بأقصى سرعة.

توجه إليها وكأنها فتاةٌ بِكْرٌ تنادي عليه ليسامرها ليلتها وهي وحيدة... ليبيت آخر الليلة في أحضانها.

فهو قد عمى عن ما هو صالح وما هو سَيِّئ، لا يكاد يفرق بينهم.

فهو في طريقه للانتحار، بائعًا كلّ مسؤلياته، ذاهبًا للهلاك بدون إدراك منه أنه يعاند ربَّه ويعصيه ويخالف مشيئته بالحياة، يرتجل الضعف والانهيار، هكذا تكُون الروح في البعد عن الله.

لمح الرجلُ أثناء سيرِه للانتحار ورقةً تلمع على الأرض فراوغت عيناه ولمعت فيهما مثل قطعة ألماس.

سقط عليها، فهو يحسبها قطعة حشيش ملفوفة في ورقتها السلوفان، فجسا على ركبتيه ليرى ما هذا الشيء فرحًا به، مستقرًا في نفسه أنّها قطعة كبيرة جدًا من الحشيش التي تزينت له وحده في جوف الليل، وكأنها خُلقت له من العدم.

ومن شدة ذهاب عقله شكر عليها ربَّه، وتوهم كذبًا أنَّ اللهَ وهب له فيها الحياة.

والحقيقة أنَّه كان يحفر قبرًا من نارٍ بيده، كان أقوى شخص ضعيف في عيون روحه... أو يا ترى هل ألقاها الشيطان عمدًا في طريقه.

وإذا به وهو على ركبتيه تخرج روحه، تزهق رغمًا عنه وتُنتزع من بين طيات جسده، تصعد للرفيق الأعلى على تلك الوضعية.

يعطينا القدر الفرص للنجاة ولكننا نفوتها مع سبق الإصرار والتعمد.

تجمَّع عليه أهل البلدة كلهم وقرّروا أنَّه مات راكعًا لله، جاسيًا على ركبتيه لله... فلهم الظاهر.

هؤلاء هُم البشر، وهذا أقصى ما يفعله بِك الآخرون، يحكمون عليك من ظاهر أفعالك.

صلِّ وصُم، وقُم وتعبد أمامهم واختلِ بمعاصيك، ولكن احذر ..ستظل تفضحك ذنوبك وتنقشع عنك براءتك التي تتزين بها في أعينهم، واكشف نفسك بين يديه وحده، فهو الوحيد القادر على رؤيتك لأنه أقرب إليك من حبل الوريد.

هم يشهدون أنه قد كان تاب إلى ربه من ساعاتٍ قليلةٍ على يد ابنه.

سمع عمدةُ القريةِ القصةَ كاملةً وقال:

"إنه لأمرٌ لو تعلمون عظيم... ابنوا عليه ضريحًا، إنه شيخنا ومنقذنا مثلما أنقذ نفسه، وهنا سيدفن.

أَوَلا تَعْلَمُونَ أَنَّه كم من ضريحٍ هو في الأصل بلا شيخ!

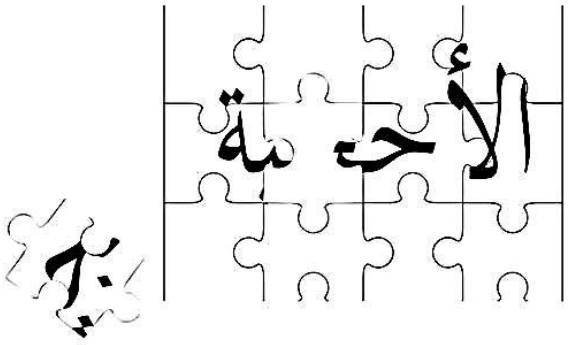
الأحجية

كم مِن الاهتمام لابد أن نبذلَ مِن أجلِ حفنةٍ من الأغبياء؟!

كم مِن العطاء لابد أن ندفعَ مِن أجل مَن لا يراعوا فينا أي مشاعرٍ البَتَّة؟!

كم مِن لحظاتِ بقاءٍ لابد أن يضيع معها العمر؟!

وكم مِن نسيانٍ وخوفٍ يعلّق بأرواحنا لابد أن نعاني حتى يدركوا أنهم يسيئون لنا؟!

إننا انتظرنا الكثير والكثير لرجوعهم ولكنهم قرروا عدم العودة، واصطنعوا اللا مبالاة.

ذهبتُ إليه هذا المساء مدللةً مشاعري، مبللةً بماءِ الحُب والنشوة، ممزوجةً ببكارة وبراءة الأطفال، مُحِبَةً حد الهذيان كالبتول العذراء، شقيةً حد الجنون، شبقةً حد المجون، لم يكن لدى مشاعري أي اختيار، سوى أنها تريده، ينساب شعري خلف ظهري أسود لامع كما ليلة في عز أغسطس يكتمل فيها بدر السماء ليُرينا جمال النجوم الساطعة وسط السواد، ناعمة كحريرٍ قادمٍ من أقاصي بغداد في رحلة الصيف والشتاء، مختلفة أنا عن كل النساء، عربية أصيلة، بدوية تنافس على عرش العرب.

ولا يحدث هذا معظم الوقت، فلماذا لا يدرك هو تلك الروح التي أدركته.

سُحِقَتْ كل تلك النشوة على أعتاب برودة وكبرياءه وأنانيته.

نظر إليّ ولا يعيرني أي اهتمام، ما رأى تلك العيون، ولا راقب ذلك الجسد المحروق شوقًا كأي عروس لم يتخطَ زواجها بضعة أسابيع.

بالطبع ستغدُ أفكاركم تخبركم أنه زواج صالونات، كلا لم يكن كذلك، بل كان زواجًا عن حبٍ وثيقٍ شهد له كلُّ مَن في الحي والحي المجاور، تركتُ له نفسي، فذبتُ به عشقا.

رغباتنا اختلطت، وحبنا زاده الشغف بمحاربتهم لنا، هو أخبرني ذلك، وأنا صدّقتُ كلَّ ما يقول.

نشبت الحرائق فيّ بفعلته هذه اللحظة، وكم من مرة قد فعلها وتغاضيت.

في ليلتينِ مِن كلِّ أسبوعٍ كنت أحضر فيهما ما لذَّ وطاب من طعامٍ وشراب، حتى أعد له مشروبه المفضل من الكحول، وفي كل ليلة يهرب مني ذاهبًا لأصدقائه، كما لو كان طفلًا في الحضانة.

أنا خائفةٌ، جسدي يرتعد، أكان حضنه ليطمئنني لو ظل هنا الليلة؟.

جلبت له روحي ونفسي وقلبي وأحضرتهم له على طاولة الامتلاك فأبى.

تنكر لي وأنا زوجته وعروسته المنشودة.

ولكني قررت ألا أذهب إليه هذه المرة لأستجديه البقاء، لن أفعل، لن أُذَل مرةً أخرى، لن أوعده بالحفاظ عليه، لن تسرني رؤيته بعد هذا اليوم.

كل محاولاتي دون جدوى، وكأنني امرأة مشلولة تريد أن تعتليَ أعلى قمم الجبال، رغم خياناته التي تعددت ومسامحتي التي تعود عليها.

ليس الأمرُ خطيرًا دائمًا، أول مرة فقط هي أصعب كلّ مرة، وهي أروع كلّ مرة، وهي المرة التي لا تنسى.

تعودت الألم ولكنني الان تعاهدت مع نفسي، سأسقيه لك أضعافًا، فأنت لا تعرف شيئًا عن الحب، الكل يعرف والكل يعرف أيضًا أنك لا تعرف، إلا أنت تُكابر وتُغر يومًا عن يوم يزداد حبك لنفسك وغطرستك الغير مبررة.

بدون أن أخطط لأي فكرة، سأنتظره لبعد الفجر لحين رجوعه، عقلي يراودني أن أنام لكي يمضي الوقت سريعًا بدون شعورٍ أو إحساسٍ بهذا الجسد المشتعل حرارة.

جسدٌ فقد هويته طواعية على أشلاء غروره، سأكون قويةً مهما كلفني الأمر مِن عناء.

سأنادي على أخيه فهو في نفس عمارتنا في الدور الذي يقع أسفلنا علّه يفعل ما لم يفعله هو.

أَوَصَل بي الأمر إلى هذا؟!

أجننت أنا؟!

آه يا إلهي، تلك ليلة باردة، ونحو اللا اختيار يذهب عقلي، ولكن قلبي قد قرر الاختيار، سأنادي على أخيه.

ترى ماذا سوف تقول زوجة أخيه عني.

عقلي يتحدث معي.

أنا جُننت هذه الليلة.

ثمانية أسابيع كفيلةٌ أن تجن أي امرأة، تتزين وتتنهد ويتهادى ملمسها لأية لمسة ولم تجدها.

لم يعد يهمني شيئًا، أنا فعلتها، اتصلت بأخيه وها هو قد حضر وفعل ما لم يفعله هو.

إنه أخذ مني كلَّ ما كنت أحضره طيلة اليوم لزوجي، نعم طلبت منه أن يأخذَ هذا الحمام المشوي كجمر مشاعري، واللحم البارد، مثل تلك الليلة، هو أولى بهم عني، هو مهتم بزوجته ويدللها وسيفرح جدًا بتلك الزجاجة المشبرة لونها الكحولية الطعم.

تعجَّب مني!

كيف أحضر كل تلك الأشياء لأخيه ويتركني ويغادر مع أصحابه.

أنا سمعته يقول: "دا مجنون الظاهر كدة، يا دين النبي، إيه الليلة دي، حظي حلو اوي باين ".

آآه، كدت أن تخرج روحي خارج جسدي وما فائدتها، ليس هذا الصعب حتمًا، الأصعب أن أدرك كيف أعوض ما فاتني، كيف أنتظر كل هذا الوقت كوردةٍ تعطشت للندى، كأرضٍ خصبةٍ يتم تبويرها عن عمد، أنه مصاب بالزهايمر الحسي.

هو أتى، نعم أتى... بعد منامي رأيته يأتي مسرعًا إلى حضني الذي طالما اشتاقه، يتأسف لي أنه أخطأ ويسألني أن أسامحه، وأن يأخذ مني صك الغفران.

يمكنه فقط أن يعي حالتي ويسمع قلبي، فقط إن كان مايزال يسمع، كيف يسمعني... وهو قد توفى ليلة الدخلة... يالي من غبية " تعيش على الذكرى" أعاتبه كل ليلة ليعود مصطنعة الجنون.

اختلط عليها الأمر تهذي جراء صدمتها.

أيهم الحقيقة وأيهم الخيال، هل مات أم أنا أنتظر عودته من عند أصدقائه تلك الليلة.

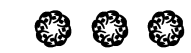

عازف الأحزان

القصة القصيرة الحائزة على المركز
الخامس في مسابقة شغف أفضل
كاتب عن سنة 2015

حين يصمت اللسان ويعجز عن البوح والتواصل مع مَن حوله بفعل صدماتٍ من البشر أو أيّ ما كان من أسباب، ولن يأتي الوقت بعد لسردها لأي كان من البشر خوفًا من أحكامهم المسبقة، فتَفتح الآفاق للحروف فيك، تعيش بين طيات عوالمها، تتمسك بأطراف روحك ظنًا منك بأنها ستعبر أكثر وتنطلق بِكَ إلى قلب من تحب، فستكون الورقة لك خير رفيق وستغزل من خيوطها أجمل هداياك لهم، لو حقاً يقدِّرون.

كانت إمرأةً جميلةً متزوجةً مِن رجلٍ مثقفٍ وعلى قدرٍ وافٍ من الاحترام وذلك كان يكفيها.

ولكنه كان قليل الكلام معها، يحب أن يختلي بنفسه ويجلس منفردًا أكثر من جلوسه معها.

كانت وحيدةً مثل تلك الزهرة التي نسى البستاني أنْ يقطفها ليكمل مزهريته وجمع باقي عائلتها.

وعندما عاتبته في مبتدأ زواجهم أخبرها بأنَّ هذا طبعه، لا يجيد أن يعبّر عن ما يختزل به قلبه، ومشاعره ليست مباحة ينطق بها حتى لو كانت لزوجته، واستجداها أن تتحمله على أمل أن يتغير في يوم من الأيام.

هو عهد فيها العقل فكانت إمراةً شبه مكتملة، طيبة وحنونة وعاقلة، ولها كبرياء، لها طابعٌ خاص ، لا تجبره على فعل شيء لا يرغب به؛ فنصحها بأن تتجه للقراءة فهي غذاء العقل، وقوة الروح تنبع منها.

ففعلت وأطاعته كتلميذةٍ محبةٍ لأستاذها.

فرشح لها مجلةً بعينها وقال لها تابعيها فهي تعجبني.

فقررت أن تحب ما يحب هو لكي تعرف ما يشغل باله عنها، وتصل إليه، علّها تصل إليه وتلوذ بقلبه.

وكانت قد اقتنعت أنه تزوجها لأجل الزواج فحسب، شيء روتيني قاتل، ولا تعي يومًا أنه قد أهيم بها عشقا.

وبمنتهى الصمت لاذت بنفسها والأوراق، تتخذ من سطور الكتب ملجأً لروحها الوحيدة، فليس لديهما أطفالٌ بعد.

واعتادت على قراءة مقالة كل يوم صباحًا لأحد الكتاب الذي لا يريد أن يفصح عن اسمه واكتفى بإمضاءٍ تحت المقال "عازف الآحزان".

فشغلها حرفه، وأُعجبت بأسلوبه وحواره عن كل شيء بالدنيا وكأنه عرف جميع أسرارها، ومخابئها، وأدرك كيف يمتلكها حتى بدون أن تعرف هويته.

فحب الروح أشمل وأرقى، وكم من أرواحٍ تتلاقى عبر الحروف والورق رغم البعاد، وكم مِن أجسادٍ تموت وتفنى وهى ما تزال تمارس معاشرة الحياة عبر التلاقي.

فشعرت من حروفه وتعبيره بأنه يعزف بالكلمات على قلوب الناس، وبأنه صُدم كثيرًا من البشر في حياته.

وذات يوم قرأت للكاتب مقالًا بعنوان " أحب زوجتي".

تمكن الكاتب من لمس قلبها عندما وصف مشاعره وحبه لزوجته؛ فأشعلها المقال حبًا واشتياقًا لحرف العشق والكلام المعسول من زوجها فهو مازال حبيبها.

فهرولت إلى خلوته مسرعة، وكان يرتشف قهوته صباحًا فيها كالمعتاد، اقتحمته وهي تكاد أن تقع، مثل مهرة أطلقوا قيدها بعد شهورٍ من الحبس.

فتحت الباب مسرعةً إلى الداخل، ذاهبةً نحوه عند المكتب الفخم، فوجدته يمسك قلمًا وورقةً كتب فيها بخطٍ عمودىّ كلامًا متسلسلًا وقد وقَّع تحتها باسم "عازف الآحزان"

سئمت من تلك المقابلات الشخصية (المهينة) للالتحاق بمهنة زوجة لأحدهم.

مقابلةٌ تُرغم عليها لتهمل كلَّ مؤهلاتها وفكرها وشخصيتها، تكون فيها فقط لوحة مزينة، للعرض في ڤاترينة الحياة، ليرمقها ذلك الذكر المسمّى رجلًا بنظراتٍ متفحصةٍ يلقيها على كل أجزاء جسدها كسلعةٍ للبيع، بعين تاجر على بضاعة يُحتمل شرائها، ثم يذهب بعد أن يقلبها بعينيه عن اليمين وعن الشمال، ثم يذهب لأجلٍ غير محدد للرد، هل أعجبته تلك السلعة أم لا؟

أما عن حبيبها فهي قد تركته و لن تلعب تلك اللعبة وتخبره أن أحدهم جاء لخطبتها لتدفعه دفعًا نحو النخوة والغيرة.

هل سينتظر رأي الأمم المتحدة ليأتي ليطلبها زوجةً وأمًّا لأولاده؟!.

هي تركته حفاظًا على سمعتها وعلمت أنه لو أحبها لتقدَّم بدون أن يعرف أنَّ كلَّ فترةٍ وجيزةٍ يأتي عريسٌ جديد، أو شارٍ غني.

وقفت مع نفسها لبرهة... لماذا عليها أن تفعل ذلك؟

ولماذا ترضى بأن يتضائل حجمها ليكون نجاحها فقط متوقفًا على اجتياز تلك المقابلة السمجة، بل وعلى ذلك الذكر الذي قد لا يرتقي

لمستوى فكرها ووعيها، أم يكون في قبوله تزكية لها وصك بالتميز وكأنها قد فازت بالأوسكار وربحت مع اليانصيب.

وماذا عن اختيارها هي وما رأيها فيه ؟

تلك الأسئلة وكأنها إفاقة المُغيب أو نقطة النهاية لمرحلة العبث في حياتها ومرحلة أن ترفض وتخبرهم أنها ليست شجرة ولها الحق في اختيار حياتها.

ولكن ماذا عليها أن تفعل واليوم موعد لأحدى تلك المقابلات.

الرفض لا يليق بها؛ فقد قبلت من قبل، بل واختارت الموعد مع والديها.

والتنصل الآن تقليل بالوالد الذي أعطى كلمته.

بعد تفكيرٍ وسجال داخلي قررت أن يتم الموعد كما هو مقرر له سلفًا ولكن بكيفيةٍ هي تراها مناسبة.

كالعادة أتتها أمّها لتخبرها بالتزين المعتاد، وأنَّ بنات العم قد حضروا بالخارج كي يساعدوها في ذلك، وقد أتوا ببعض الإكسسورات الأنيقة.

لكنها صدمت الأم التي طالما كانت توافق على اقتراحاتها في ذلك الشأن إرضاءً لها، صدمتها برفضها الخروج من حجرتها وبأنها

ستتزين وحدها اليوم بل وستكون المقابلة في تلك الحجرة الصغيرة التي تعبّر عنها بكل تفاصيلها ولن تكون في ذلك الصالون المُتكلف والمهندم بمبالغة لذلك اليوم، وها قد سميت على اسمه ذلك النوع من الزيجات.

بعد سجالٍ وبعض الحدة وتدخل الوالد، رضخ الأبوان لطلب كريمتهما خاصة بعدما لوّحت أن لن تكون هناك مقابلة بغير ذلك، وإنها كل مرة تنزل على إرضاءهما الكامل دون أي امتعاضٍ أو إظهار لعدم رغبتها.

نزل الوالدان عند طلبها شريطة أن ترتب محتويات حجرتها وتجعلها أكثر قبولًا.

فأخبرتهم أنه بالطبع سيكون، فهي تحب أن تظهر بأناقة داخل حجرتها وفي نفسها.

لكنها كانت تبدي في نفسها مفهومًا آخر عن الأناقة ستتأنق به اليوم لأول مرة.

جاء الموعد المحدد، أتى الرجل في الخارج، جلس مع والدها حتى تتهيأ.

دخلت عليها أمها فتفاجأت بهيئة ابنتها وهيئة الحجرة المرتبة ترتيبًا غريبًا، لكن الوقت لا يحتمل أي تغيير؛ فالرجل ينتظر في الخارج مع والدها وقد أنهيا كل أحاديث البلاد والعباد والغلاء.

وأمها دخلت فقط لتستأذنها لدخول الرجل.

على التّو كان الرجل في الخلف مع والدها الذي أخذ يتنحنح كإعلانٍ عن دخوله.

خرج الوالد مع الوالدة ليتركهما وقتًا يسيرًا للتحدّث معا، خرجا وهما يحملان غموضًا واستفسارًا يحتاجانِ إلى توضيحٍ عن تلك الهيئة الغير معتادة.

أما الرجل أخذ يدور بناظريه على كلَّ أركان الحجرة يطلع على تلك الشهادات المعلقة واللوحات المتناثرة في الأرجاء، على غير عادة مَن هم قبله لا يزيغ بصرهم عن العروسة، ربما ذلك ليس لاختلافه ولكن لما زينت به نفسها وحجرتها.

فلم يعتاد أن يرى انجازات بهذا الحجم، فهو كمثل معظم الناس لا يعرف لِمَ يعيش؟ وما يتمنى؟

فهو يقطن مع سكان الحيز الفارغ، لا يدركون لماذا ولدوا؟ ولماذا يتنفسون؟، يحيون حياتهم بدون أدنى وعي.

في هذه الأثناء وأيضا على غير العادة باغتته هي بالحديث لتفك له رموز ما يراه على الحائط وعن زيّها، أخبرته عن تلك اللوحات أنها أعمالها الفنية التي سهرت عليها الليالي وشغلت هذا الحيز الجميل الكبير في غرفتها، وتلك الشهادات هي كل ما حصلت عليه خلال عمرها مِن مؤهلاتٍ وشهاداتِ تقديرٍ مطعمة بإرادة وهدف وإصرار وطموح يشع مِن عينيها، وعن زيّها فهو لباس التخرج من كلية الفنون الجميلة، التي طالما كانت حلمها الوحيد.

لمْ تترك له مساحةً للتعليق حتى أردفت بسيلٍ من الأسئلة.

أخذت زمام المبادرة للمرة الأولى في كل الزيارات عن أن تكون مجرد دمية ينظر إليها كلُّ مارٍ يبحث عن عروسته.

سألته عن موهبته وعن حلمه وعن هدفه فكانت إيماءاته اللا شيء، ثم عن تعليمه فكان بالكاد متوسط، ثم عن قراءاته فأجاب لا شيء سوى كتب الدراسة الروتينية.

أشعرته بالضآلة أمامها وأمام عظمة تفوقها، ثم قاطعته في نهاية إجابته بالحسرة والأسف وأنها كانت تتمنى مواصفات معينة لم تجدها في إجاباته.

في هذه اللحظة رد قائلًا: "لكنني كنت أريد فتاةً مثلك، لا تقل عنكِ، وأنتِ تاجٌ سأزين به حياتي، وأعجبتني كلّ سماتك".

أجابته بأنها ستفكر وكانت الإجابة لأول مرة "سترسل له الردَّ عما قريب".

المشهد العاشر

يراها هو فَيَخرّ على الأرض باكيًا، ليته لم يتحرك الليلة، ليت هذا الهاتف الجوال لم يرن إلا بآخر اتصالٍ منها، لولاها ما كانت ستمر أحداث تلك الليلة بهذا السيناريو التي آلت إليه.

ولكن عزاءوه الوحيد أنَّ القدر أرسله لمساعدة من يحتاجونه.

وحتى لو أصابه ندمٌ فما فائدة الندم وهي عليلةٌ بالجهة الأخرى تصارع الموت على سريرٍ قديمٍ لم تنادي إلا اسمه وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة في تلك المستشفى المجهولة والتي لم تعلم حتى اسمها قبل وصولها إليها في حالة شكوى من زائدة قد انفجرت بدون سابق إنذار.

المشهد الأول

عاد " سامح" من نوبة العمل متأخرًا كعادته، وضع الهاتف الجوال على هذا الشاحن الذي طالما يقف عن العمل أحيانًا ويعمل أحيانًا أخرى، فالأمر متروكًا لاختياره، مع تكرار نسيان أن يقتني شاحنًا جديدًا.

تعوّد على النسيان ولا يدرك أنَّ الإلكترونيات والهواتف النقالة أصبحت في حياتنا لها أكثر من فائدة، أهمها تواصلنا بمَن هم بعيدين عنا.

هاتفته زميلته في العمل، تُدعى "رحاب" تطمئن على حاله وتشكره على توصيله لها لغاية المنزل، فهي تسكن بجوار منزله في نفس حي المغتربين.

هي ليست من المنطقة، مات أبواها فتركت بلدها وقررت أن تأتي لتعيش في القاهرة حيث الزحام الذي يمكن له بضراوته أن يعينها على نسيان فقدانهما في حادثة.

هاتفته وكانت مكالمتها كجهاز إنذارٍ أنَّ الهاتفَ لم يكن يشحن.

نظر إليه وقال يا لك من أحمق، فأعاده إلى المقبس، فتم الشحن ولم يتركه إلا عندما تأكد من ذلك.

رحاب: كيف حالك يا سامح، أنا أتصل لأشكرك على توصيلك لي، فأنت نعم الأخلاق والشهامة.

سامح:- الحمد لله يارحاب، لِمَ الشكر؟، فهذا هو واجبي، أنتِ ونعم الأخت والصديقة.

ترددت رحاب على الجهة الأخرى، فهي أرادت أن يقول غير ذلك، فهي تعلقت به وربما تأكدت هذه الليلة أنها أحبته عندما خفق قلبها بشدة لحظة تركها إياه عند باب المنزل.

ردت رحاب وهي تضحك: الشكر لك واجب، عسى أن تفعلها كل ليلة لتؤنسني في غربتي وطريقي.

أجادت في اختيار المعنى، امتنعت عن أن تخبره بمشاعرها، هي تنتظره هو ليفعل.

قال سامح ضاحكًا: أنتِ فعلتِ بي خيرًا باتصالك، هاتفي الجوال والشاحن للمرة العشرين لم يكن يشحن، أنقذتيني من هاتفٍ عديم القيمة.

فضحكت رحاب وقالت متمنيةً: يارب دائمًا أفعل لك الخير.

واصطنعت أنها أنهت حديثها وأنها تريد أن تذهب للنوم، لكي لا تستمر بالحديث معه طوال الليلة، وفي داخلها تود أن يمتد الحديث طيلة العمر.

فقلما نشعر أن هناك من نريد أن نحادثه طوال حياتنا، ولكنَّ الأقدار تفعل بنا غير ذلك.

أغلق معها الهاتف قائلًا لها : أراكِ غدًا يا رحاب، في حفظ الله، " لا إله إلا الله".

توردت وجنتاها وردَّت فرحةً بتلك الإشارة : محمد رسول الله.

تأكد سامح من أنّ الهاتف مازال يشحن وأن المقبس يعمل وخلد إلى النوم.

المشهد الثاني

بعد مرور ساعة ونصف من الوقت، الساعة الآن الواحدة صباحًا، رن جرس الهاتف فاستيقظ سامح فزعًا مضطربًا، مَن سيتصل به في هذا الوقت؟!

صديقٌ له يُدعى "عبدالرحمن" قد تعرض لحادث سرقة وذهب إلى القسم في المنطقة المجاورة وليس معه أية أموالٍ لكي يعود إلى المدينة التي يسكن بها.

ينظر سامح إلى الهاتف فَرِحًا فقد تم اكتمال شحنه وها هو سيذهب لإنقاذ صديقه وإعطاءه بعض الأموال، داعيًا ل "رحاب" في قرارة نفسه، فلولاها ما اكتمل الشحن وما كان الهاتف ذو قيمة، وكأنه قطعة خردة من الحديد.

ارتدى سامح ثيابه ونزل بسرعةٍ ليساعد صديقَه في هذه الأثناء.

وضع الهاتف في جيبه ونسى أنه قد وضعه على وضعية الصامت.

رنت عليه رحاب في تلك الأثناء.

هي أصيبت بوعكة صحية فجأة.

ظلت ترن عليه بضع مرات ثم تستسلم للألم وتصمت.

المشهد الثالث

يقابل سامح صديقه في الشارع المقابل للقسم ويعطيه مبلغًا من المال ليذهب به إلى بيته.

شكره صديقه.

فقال له: لا تشكرني أنا، لولا صديقة لي ما كنت أنقذتك.

وحكى له الموقف.

فضحك صديقه قائلًا: بدون الهواتف والأجهزة الإلكترونية سوف تشل حياتنا وممكن أن تنتهي بالموت.

فرد عليه سامح : لا تبالغ يا صديقي، فأنت لطالما كنت تعطي الأشياء أكبر من حجمها أحيانًا.

والهاتف مازال صامتًا بجيبه لا يدري أنَّ أحدهم يتصل به.

المشهد الرابع

سامح في طريق عودته والهاتف في حوزته يرن وهو مازال لا يعلم، وإذ به يلتفت في شارعٍ مجاورٍ له ولكنه مهجورًا نوعًا ما، فيجد آنسة يَعتدي عليها رجلٌ كبيرٌ وهي فتاة صغيرة لا يكاد صوتها يُسمع.

فيذهب ويركله من ظهره ويضربه بالقلم على وجه.

فيفر الرجل على الفور حتى بدون أن يرى ملامحه ناعتًا إياه بأبشع الألفاظ.

يهتم بالآنسة ويهدىء من روعها فهي ترتعد وتنهار من شدة الخوف يسألها سامح: لماذا تسيرين في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

بينما هي تقاوم خوفها وتشكره على صنيعه معها. وترد مردفةً:

" أبي في المستشفى وكان بغرفة العمليات طوال اليوم، ما أردت أن أعود للمنزل إلا بعد أن أطمئن أنَّ حالته قد استقرت، فشكرًا لك على صنيعك معي، لن أنساه طيلة حياتي، ليت كل شباب اليوم مثلك.

رد سامح قائلًا: لا داعٍ أبدًا للشكر، هذا واجبي، والدنيا مازالت بها صالحون وصدق رسولنا الكريم حينما قال " الخير في أمتي إلى يوم الدين".

ردت الفتاة: ألم تسألني عن اسمي.

فقال لها: أنتِ إنسانة وهذا يكفيني.

فردت قائلة: أنا مريم القبطية، وأدين لك بالفضل أيها الشاب المسلم التقي، وسأدعو لك يوم الصلاة في الكنيسة، وسأخبر أبي ليدعو لك.

شكرها وهو متعجبٌ من تلك الأحداث التي تمر عليه، وشاكرًا " رحاب" في سريرته.

المشهد الخامس

تتصل "رحاب" به كلما يشتد عليها الألم، ولكنه لا يرد.

تناشده أن يستيقظ فلم تعلم هي كيف ليلته ولم تتخيل أنه حدث له ما حدث.

لم تُعير المغص الذي أصابها أي اهتمامٍ ولكنه يتزايد عليها ورحاب لم تعرف غيره في المنطقة.

تتذكر في لحظةٍ خاطفةٍ أنَّ رقم صاحبة المنزل معها، ولكنَّ الوقتَ متأخرٌ جدًا.

ولكنَّ الألمَ أصبح لا يُحتمل، فقدماها غير قادرتين على الحركة، والوقت الآن أصبح الثالثة قبل الفجر.

تحاول أن تنهض وداخلها يعتب على سامح لِمَ لمْ يرد عليها؟!

أيعقل أنه لم يسمع كل تلك الاتصالات؟!

تقرر أن تتصل بالسيدة رجاء فما عاد لها سبيل إلا هي.

رنت مرة وأغلقت مسرعةً مترددةً وخائفةً من إزعاجها في هذا الوقت المتأخر من الليل.

والسيدة لم ترد هي الأخرى، إنها نائمة بالفعل.

تصرخ رحاب وتصرخ ولم يسمعها أحد.

فتفقد الوعي نهائيًا.

لم تعلم هي أنَّ الألم هو للزائدة الدودية ولابد أن تُنقل إلى المستشفى حالاً فحالتها باتت متأخرة.

المشهد الرابع

ترك سامح مريمًا وهو في غاية السعادة لأنه أنقذها من بين شهوات هذا الرجل الدنيء ولولا إصابته في قدمه اليوم في العمل لتداركه ليقبضَ عليه ويذهب به إلى قسم الشرطة.

فلابد أن يُعاقبَ مرتين، مرة لأنه رجل كان لابد أن يحمي الفتاة بدلًا من أن يحاول اغتصابها أو يتحرش بها، ومرة لأنه كان لابد أن يكون بصورةٍ إنسانيةٍ راقيةٍ، فأين الإسلام وديننا من فعلته؟!.

أين رحمة الله التي وُضعت فينا لنعامل بها بعضنا البعض.

بينما يحدّث سامح نفسَه فإذا به يسمع صوتًا لعجوزٍ، يرتفع متوجعًا.

يتبع الصوت، إنه لأم جورج جارتهم التي تقطن في أول الحي.

ينادي عليها فهي في الدور الأرضي ومؤكدًا ستسمعه.

سامح: ما بكِ يا أم جورج وأين هو چو؟ أما زال لم يزورك بعد؟

فردت عليه من خلف النافذة: "سأفتح لك الباب يا سامح، أنا أحتاج مساعدتك، عيني لا أرى بها الدواء.

ادخل يا بني لتعطيني إياه، فالرب أرسلك إليّ وابني سوف يرى من الرّب ما يرى، فأنا غاضبةٌ عليه، يتركني ليسهر كل ليلة ويتعاطى الخمر، ولم يهتم لأمري"

فتبكي العجوز وهي تفتح الباب لسامح، فيدخل سامح ويهدّيء من بكائها ويقرأ لها عُلب الدواء للروماتيزم، فتخبره عدد الجرعات، فهي واعية ولكن لا ترى بعينيها ، تدعو له وهو يخرج غالقًا باب المنزل وراءه.

المشهد السابع

سامح في طريق عودته متجهًا إلى المنزل وقد ظهر عليه آثار الإرهاق.

فلا يعلم هو ما آخر هذه الليلة المؤرقة.

متعجبًا أنَّ كلَّ ذلك حدث فيها.

ولولا اتصال رحاب الأخير ما كان سيحدث أي شيء من كل ما جرى.

بعضُ المواقفِ تحدثُ بحياتِنا لتتبعها مواقفٌ أخرى تُبنى عليها، فهي أساسٌ لمجرى الحياة، وربَّما تغير هذا المجرى للأبدِ فتقذف قاربَ الظروفِ إلى الضفةِ الأخرى حيث يريدنا القدرُ أن نكون.

يفكر سامح ماذا لو لم يذهب لينقذ صديقه ويساعده بالمال، وماذا لو لم يمر بهذا الشارع المهجور الليلة في هذا الوقت.

المشهد الثامن

تستيقظ مدام رجاء لتصلي الفجر، فالساعة الآن الرابعة فجرًا، والفجر قد أذّن، وهي تريد أن يبدأ يومها بالصلاة.

تأتي بهاتفها كي ترى كم الوقت الآن وإذ بها ترى اتصال "رحاب" ففزعت.

ليس من عادة رحاب أن تتصل بها، لا في مثل هذا الوقت ولا في غيره إلا لأول كل شهر لتعطيها إيجار المنزل.

تتوتر المرأة وتتصل عليها فيرن الهاتف ولا تجيب "رحاب".

فيزيد توتر مدام "رجاء" وتدعو الله أن يكون الأمر خيرًا وتقرر أن توقظ زوجها من النوم وتخبره بما حدث.

فيقررا أن يصعدا لشقة "رحاب" معًا ولكن سينادون حارسَ العقار ليكن بصحبتهم لعل الأمر أشد خطورة مما قد يظهر عليه.

فيهاتفون البواب فهو من عاداته الاستيقاظ مع الفجر.

فيصعد إليهم على الفور ويأتي معه بآلة حديدية تحسبًا لأي شيء قد حدث، فهو بمرور الوقت في هذه المهنة قد رأى فيها الكثير وتعلم الأكثر.

يصعد ثلاثتهم إلى الطابق العاشر.

يطرقون الباب ويرون الجرس ولا يفتح أحد.

بل يسمعون صوت تأوه يأتي من الداخل.

فيقرر البواب على الفور أن يكسر الباب بآلته.

ويطلبون أن تدخل السيدة رجاء أولًا علَّ رحاب تكون ثيابها مكشوفةً وحتى لا يفزعوها.

فتنادي عليها السيدة وهي ذاهبة إليها في الممر الضيق المؤدي لغرفة النوم.

فإذا ب "رحاب" ملقاةً على الأرض مغشيةً عليها، وفي يدها الهاتف المحمول الذي أرهق معها بكثرة الاتصال على من لا يجيبون.

وكمِ من أرواحٍ وأشخاصٍ تفقد التواصل في هذا الحيز الكبير الذي يسمّى مسؤوليات وظروف وعوائق تمنعنا بالتواصل عن قرب.

يقررون في لحظةٍ أن ينقلوها إلى المستشفى في آخر الشارع فهي الأقرب لإسعافها.

وبينما يذهب الزوج لإحضار السيارة يساعد البواب السيدة رجاء في حمل الفتاة المريضة التي تُشرف على النهاية ولكنهم لا يدركون.

يحملونها لأسفل العقار ويضعونها في السيارة وهي فاقدة الوعي تمامًا.

المشهد التاسع

ترقد رحاب في غرفة العمليات بين محاولات الأطباء على وجه السرعة أن ينقذوها ولكن بدون جدوى.

يعمل قلبها لثوانٍ معدودة ثم يفقد النبض.

وهم يراقبون الآلات الطبية وهي تحت أضواء غرفة العمليات ترقد بسلامٍ مودّعة حُبها.

وفي تلك الأثناء تمسك السيدة رجاء بهاتف رحاب فتجد اتصالاتٍ كثيرةٍ لرقمٍ قبل الاتصال بها والرقم لم يرد.

فكلها رنات فحسب.

فسألت زوجها: سأتصل بآخر رقم هاتفته رحاب علّه يعرف مَن هم أهلها.

نحن يا عزيزي لم نعلم عنها أية تفاصيلٍ، فيشاطرها الرأي ويتصلون بسامح الذي صعد الآن فقط إلى شقته وقرر أن يخلع ملابسه وهو يمسك بهاتفه ويخرجه من جيبه فرآه يضيء وعلى وضعية الصامت.

ورأى اسم رحاب المتصل ففتح بدون تردد.

سامح: رحاب أهلا بكِ.

السيدة رجاء : صباح الخير أستاذي، أنا لست رحاب، أنا صاحبة منزلها، ورحاب مرضت وذهبنا بها إلى المستشفى في آخر ناصية الحي، تعالى لو كنت مهتمًا برحاب، فآخر رقم هاتفته كنت أنت، وآخر رسالة أرسلتها كانت إليك.

فصُدم سامح من كلمات السيدة التي نزلت عليه كَوَابلٍ من الصاعقة، وردَّ على الفورِ سآتي حالًا.

إن الهاتف كان على وصعية الصامت، يا ويلي، ماذا جرى لرحاب.

وأغلق الهاتف سريعًا ونزل يهرول وهو يكمل باقي ملابسه على السلم مسرعًا إلى المستشفى.

ينظر في الهاتف اللعين ليرى رحاب قد هاتفته ما يقرب من الثلاثين مرةٍ طوال الليل تقريبًا.

هو يتذكرها مع كل خطوة، وكيف أنها كانت سببًا لكل أحداث تلك الليلة المهلكة.

وكيف كان ختامها الذي سيشطره باقي عمره إلى عدة أجزاء.

وهو مازال لا يعلم مدى خطورة حالة "رحاب"، دخل المستشفى مسرعًا كاد أن يقع وهو يصعد الطابق الأول.

لتدركه السيدة رجاء، تسأله من أنت؟

فيصمت ويلحقها بالسؤال أين رحاب؟ أين رحاب؟ وماذا حدث لها؟

هي ذات القلب الطاهر الأبيض، هي أختي وصديقتي وربما لو أفاقت ستعرف أنها حبيبتي.

خرج الدكتور من غرفة العمليات وهو يطأطيء رأسه للأسفل، طالبًا منهم أن يقوموا بآخر سلامٍ على رحاب فالزائدة الدودية قد انفجرت والآن هي تحتضر.

وماذا قد يفعل العلم أمام إرادة الخالق والقدر.

طلب منهم الصمود.

بينما هم يقفون في حالة خرس تام ينهار سامح أمامهم صارخًا.

كيف؟! كيف تنقذ هي كل هؤلاء ولا أقدر أن أنقذها؟ كيف؟!

كيف أقف؟! وأنا أرى نفسي سببًا في ما حدث لها، ليتني لم أخرج، ليتني لم أعرفها، ليتني صارحتها بحبي لها.

ظل يهذي أمام الموجودين الذين يبكون عليها.

وكلٌّ يؤنب نفسه على التقصير.

فرُبَّ لحظة اهتمامٍ منك تساعد أحدَهم على الحياة.

تلفظ "رحاب" أنفاسها الأخيرة مهمهةً باسمه وفقط، قائلةً :

" أ ح ب ك ي ا س ا م ح " واتصلت لأخبرك وكانت آخر كلمة.

رؤية نقدية لعمدة الأدب

أ. عادل إدريس المسلمي

ومرة أخرى أستمتع بقراءة سطور الرائعة شاهندة الزيات بعدما أخرجت لنا تحفتها الأولى (مشاعر خارج النص) وهذه المرة أقرأ لها رائعتها (ضريح بلا شيخ) وهي مجموعة قصصية متنوعة الفكر.

وكما ذكرت من قبل في قراءتي لروايتها مشاعر خارج النص أن الكاتبة ذات فكر عالي الجودة وأنها نهمة في القراءة لذا فهي لم تكتب من فراغ بل من منجم أفكار، كما أن تمكن الكاتبة في الشعر ساعدها جدًّا في سياق الأحداث.

في هذه المجموعة القصصية ضريح بلا شيخ تأخذنا الكاتبة بفكر فلسفي خارج نطاق اللامعقول بفكر البشر لتقول لنا بين سطورها الكثير والكثير وهذا ما أظهرته لنا في استهلال المقدمة الموجزة العميقة والتي بينت لنا فيها أن الشيطان يعظ البشر بأفكاره فيتلاعب بهم كيفما يشاء ثم أثبتت لنا ذلك بقصتها ضريح بلا شيخ،

ثم تتوالى باقي قصص المجموعة التي لا تمل وأنت تقرأها بالسرد الرائع الراقي دون الحشو الممل ولكل قصة مدلولها التي تريد أن توصله لنا الكاتبة وهذا هو جمال الفكر. "فمن يكتب بلا هدف يفيد القارىء فهو يكتب لذاته".

ضريح بلا شيخ مجموعة قصصية برؤية فلسفية عميقة صاغتها الكاتبة بألفاظ جاءت لنا بها من مخازن لغتنا العربية الجميلة لتتناغم مع النص.

استخدمت الكاتبة كافة محددات العمل الأدبي وجاهدت في الوصف بشقيه الشخصيات والمكان وقامت بتوظيف الشخصيات بدقة متناهية فخرج النص بشكل ما أروعه.

عادل إدريس المسلمي

رؤية نقدية لـ

أ. شكري دعبس

عزيزي القارئ إن الأعمال الأدبية القصصية والروائية يعتمد الكاتب فيها على موهبته ولكن معها خبرته في الحياة من مواقف عاشها أو عايشها وتفاعل معها ومنحها مذاقًا أدبيًّا يستميل بها القارئ فتؤثر فيه وربما تغير فيه سلوكًا يراه الكاتب خارج حدود الشخصية السوية وهذا هو أهم دور يقوم به الأدب في حياتنا.

من هذا المنطلق قرأت لك هذة المجموعة القصصية للكاتبة المبدعة شاهندة الزيات "ضريح بلا شيخ" وقد وفقت الكاتبة في اختيار هذا العنوان وهو اسم قصة موجودة بالفعل لأنه يوضح شخصيات معظم أبطالها والفرق بين الظاهر والباطن في عمل الإنسان.

مالت الكاتبة إلى أسلوب الوعظ باختيارها لمواقف حياتية سلبية كانت أو إيجابية وأبدت رأيها في هذة المواقف.

ذكرني هذا بأسلوب المنفلوطي في كتابه العبرات استخدمت الكاتبة اللغة السهلة ما بين الفصحى والعامية لتكون أقرب إلى الواقع.

نجحت في استخدام كل تقنيات القصة من سرد وحوار سواء كان داخليًّا أو خارجيًّا تغللت الكاتبة داخل نفس أبطالها لتكشف أغوار النفس في شتى المواقف حتى تثبت وجهة نظرها في هذة المواقف ثم استعارت لغة المشاهد من الأعمال المسرحية إلى العمل القصصي.

هذة رؤيتي لهذا العمل الأدبي ولك أن تتناولها عزيزي القارئ وتستمتع بها ويكون لك رأيك فيها مع تمنياتي للكاتبة بأعمال أخرى أكثر إبداعًا.

أحمد الأدبي / شكري دعبس

الفهرس

صرير الأفاعي 5
الغرفة في الطابق الأخير..... 18
معًا إلى الأبد 28
وجوهٌ صلبةٌ..... 31
أمطار ديسمبر..... 34
فلسفةٌ بلا منطقٍ 45
أوركيدوا 49
حظٌ مسروقٌ..... 52
أغادير..... 55
يقظة..... 56
أسفٌ بلا عمدان..... 59
الأرجوحة..... 68
القصة الأخيرة مولانا 79

ضَرِيحٌ بِلا شَبْحٍ 87

الأحجية.. 94

عازف الأحزان 100

سكان الحيز الفارغ.. 105

المشهد العاشر 112

1. المشهد الأول.. 114
2. المشهد الثاني.. 117
3. المشهد الثالث.. 118
4. المشهد الرابع.. 119
5. المشهد الخامس.. 121
6. المشهد السادس 123
7. المشهد السابع.. 125
8. المشهد الثامن.. 126
9. المشهد التاسع.. 128